قصص في الأدب الكلاسيكي

عادل ناصر البدوي



رعب المرتفعات

أرثر كونان دويل

المربية العجوز

اليزابيث جاسكل

ما هذا الشيء...؟

فيتز-جيمس أوبريان

قصص في الأدب الكلاسيكي

عادل ناصر البدوي

تنسيق: زينب أحمد

المقدمة

إلى القارئ العزيز...

قبل أن تبدأ، اسمح لي أن أطمئنك: لن أطيل عليك، ولن أحدثك عن معاناة المترجم مع القواميس، ولا عن الجمل التي تأبى أن تُترجم.
تلك حكايات تخصني أنا، أما أنت فجئت هنا من أجل المتعة.
ولأن المتعة هي سبب وجود هذه الصفحات، دعني أخبرك ببساطة كيف وصلت إليها.

منذ مدة، وقعت في يدي مجموعة قصص.
لم أكن أعرف ماهيتها، ولم يكن هناك سبب يدفعني لقراءتها سوى الفضول.
ويا ليتني لم أفعل! أو يا ليتني فعلت من قبل.
قرأتها في جلسة واحدة، ثم أعدت قراءتها لأتأكد أن ما شعرت به لم يكن وهمًا.

لماذا ترجمتها إذن؟ لأنني قرأتها وشعرت أن هناك من يجب أن يشاركني إياها.
وهنا لا بد أن أعترف لك: هذه أول مرة أترجم فيها نصًا أدبيًا بهذا الشكل، وهي تجربة تحملت فيها قدرًا من القلق والتردد.
فالترجمة بالنسبة لي ليست نقل كلمات من لغة إلى لغة، بل محاولة لنقل الرعشة نفسها وإعادة إنتاجها بالعربية.

قد أنجح وقد أخفق في موضع أو آخر، لكنني حاولت أن أكون أمينًا لروح النص قبل حروفه، وأن أمنح كل قصة ما تستحقه من عناية وصبر.

ستجد بين هذه الصفحات ثلاث قصص.
بعضها سيربكك، وبعضها سيضحكك، وواحدة ربما ستترك في صدرك شيئًا صغيرًا لا يخرج بسهولة.

لا تقرأها كلها في جلسة واحدة إن استطعت؛ اترك لكل قصة وقتها.
واسمح لنفسك ألا تفهم كل شيء من أول مرة. فالقصص الجيدة لا تُفهم، بل تُعاش.

وفي النهاية، إن أعجبتك هذه القصص، فالشكر الحقيقي يعود للكُتاب، أما إن ضايقك شيء في الترجمة، فذاك أنا وحدي، وأنا أول من يعرف أن هذه التجربة الأولى قد تحمل بعض النقص.

وإن لم تعجبك القصص من الأساس... فربما نحتاج أن نتحدث مرة أخرى.

ما هذا الشيء...؟

فيتز-جيمس أوبراين



أعترف، وبقدر كبير من التردد، أنني أتقدم إلى هذه الحكاية الغريبة التي أنا بصدد روايتها.
فالوقائع التي أعتزم سردها تفوق المألوف والخيال إلى حدّ أنني مستعدّ تمامًا لأن ألاقي قدرًا غير معتاد من التشكيك والازدراء.
وأنا أقبل ذلك كله مسبقًا، واثقًا بأن لديّ من الشجاعة الأدبية ما يواجه به عدم التصديق.
وقد عزمت، بعد تفكير ناضج، على أن أروي بأبسط أسلوب بعض الوقائع التي مرّت تحت نظري في شهر يوليو الماضي، والتي لا نظير لها إطلاقًا في سجلات ألغاز العلم الطبيعي.

أسكن في المنزل رقم (—) في الشارع السادس والعشرين بهذه المدينة.
والمنزل غريب من بعض الوجوه، فقد اكتسب في العامين الماضيين سمعة بأنه مسكون.
وهو مقرّ كبير فخم، تحيط به حديقة كانت فيما مضى حديقة جميلة، أما الآن فلم تعد إلا حظيرة خضراء تُستخدم لتبييض الملابس ونشرها.
وفيها الحوض الجافّ لنافورة كانت يومًا، وبضع أشجار مثمرة مهملة غير مشذّبة، وكلها دلائل على أن هذا الموضع كان في أيام سابقة ملاذًا ظليلًا لطيفًا، مليئًا بالثمار والأزهار وهمس المياه العذب.

المنزل واسع جدًا.
بهو فخم يؤدي إلى درج حلزوني واسع يلتف عبر مركزه، أما الغرف المختلفة فذات أبعاد مهيبة.
وقد بناه قبل خمسة عشر أو عشرين عامًا تقريبًا السيد «أ»، تاجر نيويورك المعروف، الذي زلزل العالم التجاري قبل خمس سنوات بعملية احتيال مصرفي هائلة.

والسيد «أ»، كما يعلم الجميع، فرّ إلى أوروبا، ولم يلبث أن مات هناك من انكسار القلب.
وما إن وصل خبر وفاته إلى هذا البلد وتحقّق منه الناس، حتى انتشر في الشارع السادس والعشرين أن المنزل رقم (—) مسكون.
وكانت إجراءات قانونية قد أخرجت أرملة مالكه السابق من حيازته، ولم يكن يسكنه سوى مقدم رعاية وزوجته، وضعهما هناك وكيل العقارات الذي آلت إليه مسؤولية بيعه أو تأجيره.

وأعلن هذان أنهما يعانيان مضايقات غير طبيعية: أبواب تُفتح دون فاعل مرئي، وبقايا الأثاث المتناثر في الغرف تُكوّم فوق بعضها في الليل بأيدٍ مجهولة، وأقدام خفية تصعد وتنزل في وضح النهار، مصحوبة بحفيف فساتين حريرية غير مرئية، وانزلاق أيدٍ لا تُرى على الدرابزينات الضخمة.

وأعلن مقدم الرعاية وزوجته أنهما لن يقيما هناك بعد ذلك.
فضحك وكيل العقارات وصرفهما، ووضع آخرين مكانهما، واستمرت الأصوات والظواهر.
وتلقّفت الجيرة المؤمنة بالخوارق الحكاية، وبقي المنزل غير مسكون ثلاث سنوات. وتفاوض عليه عدة أشخاص، لكنهم كانوا دائمًا، وقبل إتمام الصفقة، يسمعون الشائعات المزعجة فيرفضون الاستمرار في التفاوض.

وفي هذه الحال، راودت صاحبة البنسيون عندي — وكانت تدير آنذاك بنسيونًا في شارع بليكر وترغب في الانتقال إلى أعلى المدينة — فكرة جسورة، هي استئجار المنزل رقم (—) في الشارع السادس والعشرين.

ولما كان في بيتها مجموعة من النزلاء الأشداء ذوي النزعة الفلسفية، عرضت علينا مخططها، كاشفة بصراحة كل ما سمعته عن الصفات الشبحية للمكان الذي تريد نقلنا إليه.

وباستثناء شخصين جبانين، قبطان بحري وعائد من كاليفورنيا، أعلنا فورًا أنهما سيرحلان، أعلن جميع نزلاء السيدة موفات أنهم سيرافقونها في اقتحامها الفروسي لمقر الأرواح.

تم انتقالنا في شهر مايو، وكنا جميعًا مفتونين بمقرنا الجديد.
والجزء من الشارع السادس والعشرين الذي يقع فيه منزلنا — بين الجادتين السابعة والثامنة — من أجمل مواقع نيويورك.

والحدائق خلف المنازل، الممتدة حتى تقترب من نهر هدسون، تشكّل في الصيف ممرًا أخضر مثاليًا.
والهواء نقي منعش، يهب مباشرة عبر النهر من مرتفعات ويهوكين.

وحتى الحديقة المهملة التي تحيط بالمنزل من جانبين، رغم أنها كانت تعرض في أيام الغسيل كثيرًا من حبال الملابس، كانت مع ذلك تمنحنا مساحة من العشب الأخضر ننظر إليها، وملاذًا باردًا في أمسيات الصيف، حيث كنا ندخّن سيجارنا في العتمة ونراقب اليراعات تومض كفوانيس مظلمة في العشب الطويل.

بطبيعة الحال، ما إن استقررنا في المنزل رقم (—) حتى بدأنا نتوقع الأشباح.
كنا في الحقيقة ننتظر ظهورها بشغف، وكان حديث العشاء خارقًا للطبيعة.

وأحد النزلاء، وقد اشترى كتاب السيدة كرو «الجانب الليلي للطبيعة» لمتعته الخاصة، اعتبره أهل المنزل جميعًا عدوًا عامًا لأنه لم يشترِ عشرين نسخة.
عاش الرجل حياة من البؤس الأقصى أثناء قراءته هذا المجلد. وأُقيم نظام تجسس كان هو ضحيته.
فإذا وضع الكتاب بحماقة لحظة وخرج من الغرفة، يُختطف فورًا ويُقرأ بصوت عالٍ في أماكن سرية على نفر مختار.

ووجدت نفسي شخصًا بالغ الأهمية، إذ تسرّب أنني ملمّ إلمامًا لا بأس به بتاريخ الخوارق، وأنني كتبت يومًا قصة بعنوان «أصيص التوليب» لمجلة هاربرز مانثلي، كان أساسها شبحًا.
وإذا حدث أن انحرف طاولة أو لوح جدار خشبي ونحن مجتمعون في غرفة الرسم الكبيرة، ساد صمت فوري، واستعد الجميع لصلصلة سلاسل وشكل شبح قريب.
وبعد شهر من الإثارة النفسية، اضطررنا إلى الاعتراف بأقصى قدر من الاستياء أنه لم يظهر شيء يقترب حتى من أبعد درجة من الخارق.

ذات مرة أكّد الخادم ذو البشرة السوداء أن شمعته أُطفئت بقوة خفية أثناء خلعه ثيابه للنوم؛ لكن بما أنني اكتشفت أكثر من مرة هذا الرجل في حالة كانت فيها الشمعة الواحدة لا بد أن تبدو له كشمعتين، فكرت أنه ربما لو خطا خطوة أخرى في شرابه لانعكست الظاهرة، فلم يرَ أي شمعة حيث كان ينبغي أن يرى واحدة.

كانت الأمور على هذه الحال حين وقع حادث فظيع وغامض إلى حد أن عقلي يكاد يترنح لمجرد تذكره. **كان العاشر من يوليو.**

بعد انتهاء العشاء انصرفت مع صديقي الدكتور هاموند إلى الحديقة لتدخين غليون المساء، ووجدنا أنفسنا في مزاج ميتافيزيقي على غير العادة.
أشعلنا غلايين ميرشام كبيرة محشوة بتبغ تركي فاخر، وأخذنا نسير جيئة وذهابًا ونتحدث.

سيطر انحراف غريب على مجاري أفكارنا؛ لم تكن تجري في القنوات المشمسة التي كنا نجتهد في تحويلها إليها، بل كانت تنحرف باستمرار إلى مسارات مظلمة موحشة يخيم عليها عتمة دائمة.
عبثًا كنا، على عادتنا القديمة، نرمي أنفسنا على شواطئ الشرق ونتحدث عن أسواقه البهيجة، وأبهة زمن هارون، والحرملك والقصور الذهبية.

كانت عفاريت سوداء تنهض باستمرار من أعماق حديثنا، وتتسع، كالذي أطلقه الصياد من القمقم النحاسي، حتى تحجب كل شيء مضيء عن بصرنا.
وبشكل غير محسوس استسلمنا للقوة الخفية التي تحكمنا، وانهمكنا في تأملات كئيبة.
كنا قد تحدثنا بعض الوقت عن ميل العقل البشري إلى التصوف والغموض، وعن حب الرهيب الذي يكاد يكون عامًا، حين قال هاموند فجأة لي:
«ما الذي تعتبره أكبر عنصر للرعب؟»

أعترف أن السؤال حيّرني.

كنت أعرف أن أشياء كثيرة مرعبة: التعثر بجثة في الظلام؛ ورؤية امرأة، كما حدث لي مرة، تطفو منحدرة في نهر عميق سريع، ذراعاها مرفوعتان بجنون، ووجهها المقلوب المروع، وهي تطلق، وهي تغرق، صرخات تمزق القلب.

بينما كنا نحن المشاهدين نقف متجمدين عند نافذة تطل على النهر من ارتفاع ستين قدمًا، عاجزين عن بذل أدنى جهد لإنقاذها، نرقب بصمت عذابها الأخير الأقصى واختفاءها.
وحطام سفينة محطم، لا حياة ظاهرة فيه، يُصادف طافيًا بلا مبالاة على المحيط، شيء مرعب، لأنه يوحي برعب هائل محجوبة أبعاده.
لكنني أدركت الآن للمرة الأولى أنه لا بد أن يوجد تجسيد واحد عظيم حاكم للخوف، ملك للأهوال يجب أن يخضع له كل ما سواه.
فما عساه يكون؟ وأي سلسلة من الظروف قد تمنحه وجوده؟

قلت لصديقي:
«أعترف يا هاموند أنني لم أفكر في هذا الموضوع من قبل، أشعر بأنه لا بد أن يوجد شيء واحد أشد رعبًا من أي شيء آخر.
غير أنني لا أستطيع حتى محاولة تقديم أدنى تعريف غامض».

أجاب:
«أنا أشبهك إلى حد ما يا هاري، أشعر بقدرتي على تجربة رعب أعظم من أي شيء تصوّره العقل البشري حتى الآن — شيء يجمع في امتزاج مفزع وغير طبيعي عناصر كان يُظن حتى الآن أنها غير متوافقة.
نداء الأصوات في رواية بروكدن براون «فيلاند» مفزع؛ وكذلك صورة ساكن العتبة في «زانوني» لبلوير؛ لكن»، وأضاف وهو يهز رأسه بكآبة، **«هناك ما هو أفظع من هذه جميعًا».**

قلت:
«اسمع يا هاموند، لنترك هذا النوع من الحديث، بالله عليك!»

أجاب:
«لا أعرف ما بي الليلة، لكن عقلي يجري وراء كل أنواع الأفكار الغريبة الفظيعة، أشعر كأنني أستطيع أن أكتب الليلة قصة مثل قصص هوفمان، لو كنت فقط سيدًا لأسلوب أدبي».

قلت:
«حسنًا، إن كنا سنصير هوفمانيين في حديثنا فسأذهب إلى السرير، ما أشدّ حرّ الليلة وخنقته! تصبح على خير يا هاموند».

قال:
«تصبح على خير يا هاري، أحلامًا سعيدة لك».

قلت:
«ولك أنت، أيها البائس الكئيب، عفاريت وغيلان ومشعوذون».

افترقنا وذهب كل منا إلى غرفته.
خلعت ثيابي بسرعة وأويت إلى الفراش، آخذًا معي كعادتي كتابًا أقرأ فيه حتى يغلبني النوم.
فتحت المجلد ما إن وضعت رأسي على الوسادة، ثم قذفته فورًا إلى الطرف الآخر من الغرفة.

كان كتاب «تاريخ الوحوش» لغودون — عمل فرنسي غريب كنت قد استوردته حديثًا من باريس — لكنه لم يكن، في الحالة النفسية التي بلغتها، رفيقًا لطيفًا بأي حال.

عزمت على النوم فورًا؛ فأخفضت الغاز حتى لم يبقَ سوى نقطة زرقاء صغيرة تتلألأ على رأس الأنبوب، وهدّأت نفسي للراحة.

كانت الغرفة في ظلام تام، وذرة الغاز التي ظلت مشتعلة لم تكن تضيء مسافة ثلاث بوصات حول الموقد. مررت ذراعي على عيني بعنف، كأني أحجب حتى الظلام، وحاولت ألا أفكر في شيء.
كان ذلك عبثًا، ظلت الموضوعات اللعينة التي طرقها هاموند في الحديقة تقتحم عقلي.

حاربتها، ونصبت متاريس من محاولة تفريغ الذهن لإبقائها خارجًا، لكنها ظلت تتزاحم عليّ.
وبينما كنت مستلقيًا ساكنًا كجثة، آملًا أن أسرّع راحة العقل بسكون جسدي التام، وقع حادث فظيع.

شيء ما سقط، كما بدا، من السقف مباشرة على صدري، وفي اللحظة التالية شعرت بيدين عظميتين تطوقان عنقي وتحاولان خنقي.

لست جبانًا، وأملك قوة جسدية لا بأس بها، مفاجأة الهجوم لم تُصعقني، بل شدّت كل عصب إلى أقصى توتره.
تصرف جسدي بالغريزة قبل أن يدرك عقلي أهوال موقفي، في لحظة لففت ذراعين عضليتين حول المخلوق وضغطته بكل قوة اليأس إلى صدري.

وفي بضع ثوانٍ ارتخت اليدان العظميتان اللتان تعلقتا بعنقي، وصرت حرًا أتنفس مرة أخرى، ثم بدأ صراع رهيب الشدة.

غارقًا في أعمق ظلام، جاهلًا تمامًا بطبيعة الشيء الذي هاجمني على هذا النحو المفاجئ، واجدًا قبضتي تنفلت كل لحظة بسبب عري مهاجمي التام كما بدا لي، وملدوغًا بأسنان حادة في الكتف والعنق والصدر، ومضطرًا كل لحظة إلى حماية عنقي من يدين عضليتين رشيقتين لم تستطع أقصى جهودي تقييدهما، كانت هذه مجموعة ظروف يتطلب مقاتلتها كل ما أملكه من قوة ومهارة وشجاعة.

وأخيرًا، بعد صراع صامت قاتل مُنهك، ألقيت مهاجمي أرضًا بسلسلة جهود مذهلة من القوة.
وما إن ثبّتّه، وركبتي على ما تبيّن لي أنه صدره، حتى عرفت أنني المنتصر.
استرحت لحظة لأتنفس، سمعت المخلوق تحتي يلهث في الظلام، وأحسست بخفقان قلبه العنيف.

كان ظاهرًا أنه منهك مثلي؛ وكان ذلك عزاءً واحدًا.
في هذه اللحظة تذكرت أنني عادة أضع تحت وسادتي قبل النوم منديل جيب كبيرًا أصفر من الحرير لاستعماله أثناء الليل.
تحسست مكانه فورًا؛ كان هناك، وفي بضع ثوانٍ أخرى كنت قد كتّفت ذراعي المخلوق على نحو ما.

شعرت الآن بأمان معقول، لم يبقَ شيء آخر سوى إشعال الغاز، وبعد أن أرى أولًا كيف يبدو مهاجمي في منتصف الليل، أوقظ أهل المنزل.
سأعترف بأنني دفعني إلى ذلك شيء من الكبرياء، إذ لم أرد إطلاق الإنذار قبل ذلك؛ كنت أريد أن أتمّ القبض عليه وحدي بلا معين.

من غير أن أفلت قبضتي لحظة، انزلقت من السرير إلى الأرض وأنا أسحب أسيري معي.
لم يكن أمامي سوى بضع خطوات لأصل إلى موقد الغاز، وخطوتها بأشد حذر، ممسكًا بالمخلوق قبضة كالملزمة.
أخيرًا صرت على مسافة ذراع من البقعة الزرقاء الصغيرة التي تدلني على موضع موقد الغاز.

وبسرعة البرق أطلقت إحدى يديّ وفتحت تيار الغاز بكامله.
ثم استدرت لأنظر إلى أسيري.
لا أستطيع حتى محاولة وصف إحساسي في اللحظة التي أضأت فيها الغاز.
أفترض أنني لا بد أنني صرخت رعبًا، لأنه في أقل من دقيقة بعد ذلك كانت غرفتي مزدحمة بسكان المنزل.

أرتعش الآن وأنا أفكر في تلك اللحظة الفظيعة. لم أرَ شيئًا! نعم؛ كانت إحدى ذراعي ملتفة بقوة حول شكل جسدي يتنفس ويلهث، وكانت يدي الأخرى تقبض بكل قوتها على عنق دافئ، يبدو جسديًا مثل عنقي؛ ومع ذلك، ومع هذه المادة الحية في قبضتي، وجسدها مضغوطًا على جسدي، وكل ذلك في ضوء ساطع لشعلة غاز كبيرة، لم أرَ شيئًا على الإطلاق! ولا حتى خطًا خارجيًا، ولا خيط دخان!

حتى في هذه الساعة، لا أستطيع أن أستوعب الموقف الذي وجدت نفسي فيه، ولا أقدر على استعادة ذلك الحادث المذهل بكليته.

عبثًا تحاول المخيلة أن تحيط بهذا التناقض الفظيع: كان يتنفس؛ شعرت بأنفاسه الدافئة على وجنتيّ.
كان يصارع بعنف؛ كانت له يدان قبضتا عليّ، كان جلده ناعمًا كجلدي، وها هو ذا راقد، ملتصقًا بي، صلبًا كالحجر، ومع ذلك غير مرئي تمامًا!

أعجب أنني لم يُغمَ عليّ أو أُصَب بالجنون في الحال.
لا بد أن غريزة عجيبة هي التي سندتني؛ لأنني، على نحو مطلق، بدلًا من أن أرخي قبضتي على هذا اللغز الرهيب، بدا كأنني اكتسبت قوة إضافية في لحظة الرعب، وشددت قبضتي بقوة عجيبة حتى شعرت بالمخلوق يرتجف من الألم.

في تلك اللحظة دخل هاموند غرفتي على رأس أهل المنزل.
وما إن رأى وجهي — الذي أفترض أنه كان منظرًا فظيعًا — حتى أسرع إلى الأمام صارخًا:
«يا إلهي العظيم، هاري! ماذا حدث؟»

صرخت:
«هاموند! هاموند! تعال هنا. أوه! هذا فظيع! لقد هاجمني شيء ما في السرير، وأنا ممسك به؛ لكنني لا أستطيع رؤيته — لا أستطيع رؤيته!»

هاموند، وقد أدهشه بلا شك الرعب الصادق المعبَّر عنه في وجهي، تقدم خطوة أو خطوتين بتعبير قلق حائر، وانفجرت ضحكة مسموعة جدًا من بقية زوار غرفتي، هذه الضحكة المكبوتة جعلتني أستشيط غضبًا.
أن يُضحك على إنسان في موقفي! كان ذلك أسوأ أنواع القسوة.

الآن أستطيع أن أفهم لماذا كان منظر رجل يكافح بعنف، كما يبدو، مع لا شيء هوائي، ويطلب المساعدة ضد طيف، يبدو مضحكًا.
حينها كان غضبي على الجمهور المستهزئ بالغًا إلى حد أنني لو كنت قادرًا لضربتهم موتًا حيث وقفوا.

صرخت مرة أخرى بيأس:
«هاموند! هاموند! بحق الله تعال إليّ.
لا أستطيع أن أمسك — الشيء — لفترة قصيرة أخرى.
إنه يتغلب عليّ، ساعدني! ساعدني!»

همس هاموند وهو يقترب مني:
«هاري، لقد دخنت كثيرًا.»

أجبته بنفس النبرة المنخفضة:
«أقسم لك يا هاموند أن هذا ليس وهمًا.
ألا ترى كيف يهز جسدي كله بمصارعاته؟ إن كنت لا تصدقني، فاقنع نفسك. تحسسه، المسه.»

تقدم هاموند ووضع يده على الموضع الذي أشرت إليه، انفجرت منه صرخة رعب جامحة، لقد تحسسه!

في لحظة كان قد اكتشف في مكان ما في غرفتي قطعة طويلة من الحبل، وفي اللحظة التالية كان يلفها ويعقدها حول جسد الكائن غير المرئي الذي كنت أضمه بين ذراعي.

قال بصوت أجش مضطرب، لأنه رغم احتفاظه برباطة جأشه كان متأثرًا بعمق:
«هاري، كل شيء آمن الآن، يمكنك أن تفلت، يا صاحبي العزيز، إن كنت متعبًا. الشيء لا يستطيع الحركة.»

كنت منهكًا تمامًا، وأفلت قبضتي بسرور.

وقف هاموند ممسكًا بطرفي الحبل الذي يقيّد غير المرئي، ملتفًا حول يده، بينما كان يرى أمامه، كأنه قائم بذاته، حبلًا مشدودًا ومتشابكًا، ممتدًا بإحكام حول فضاء خالٍ.

لم أرَ رجلًا يبدو أشد إصابة بالرهبة، ومع ذلك كان وجهه يعبر عن كل الشجاعة والتصميم اللذين كنت أعرفهما فيه، كانت شفتاه، رغم بياضهما، مثبتتين بثبات، ويمكن للمرء أن يدرك بنظرة واحدة أنه رغم إصابته بالخوف لم يكن مضعضعًا.

الاضطراب الذي نشب بين نزلاء المنزل الذين كانوا شهودًا على هذا المشهد غير العادي بيني وبين هاموند، والذين رأوا تمثيلية تقييد هذا الشيء المصارع — الذين رأوني أكاد أغرق من الإرهاق الجسدي عندما انتهى دوري كسجّان — الاضطراب والرعب اللذان استوليا على الواقفين، عندما رأوا كل هذا، كانا يفوقان الوصف.

هرب الأضعف من الشقة، أما القلة الباقية فتجمهروا قرب الباب، ولم يمكن حثهم على الاقتراب من هاموند ومحموله.

عبثًا توسلت إلى بعض الرجال أن يقتربوا ويقنعوا أنفسهم باللمس بوجود كائن حي في تلك الغرفة غير مرئي.
كانوا غير مصدقين، لكنهم لم يجرؤوا على إزالة شكوكهم.
كيف يمكن لجسد صلب حي يتنفس أن يكون غير مرئي؟ سألوا.

كان جوابي هذا، أعطيت إشارة لهاموند، ورفعنا نحن الاثنان — بعد أن تغلبنا على اشمئزازنا الشديد من لمس المخلوق غير المرئي — رفعناه من الأرض، مقيدًا كما كان، وأخذناه إلى سريري، كان وزنه نحو وزن صبي في الرابعة عشرة.

قلت:
«الآن يا أصدقائي»، بينما كان هاموند وأنا نمسك المخلوق معلقًا فوق السرير، **«أستطيع أن أعطيكم دليلًا بديهيًا على أن هنا جسدًا صلبًا له وزن، ومع ذلك لا تستطيعون رؤيته، كونوا لطفاء وراقبوا سطح السرير بانتباه.»**

أدهشتني شجاعتي في التعامل مع هذا الحدث الغريب بهدوء؛ لكنني كنت قد تعافيت من رعبي الأول، وشعرت بنوع من الكبرياء العلمي في الأمر سيطر على كل شعور آخر.
اتجهت عيون الواقفين فورًا إلى سريري، عند إشارة معينة، أسقطنا أنا وهاموند المخلوق، كان هناك صوت خافت لجسد ثقيل يهبط على كتلة ناعمة.
صرّرت ألواح السرير، ظهر انطباع عميق بوضوح على الوسادة وعلى السرير نفسه، أطلق الجمهور الذي شهد ذلك صرخة منخفضة عامة، واندفع من الغرفة.

بقيت أنا وهاموند وحدنا مع لغزنا.
بقينا صامتين بعض الوقت، نستمع إلى تنفس المخلوق المنخفض غير المنتظم على السرير، ونراقب حفيف أغطية السرير وهو يكافح عاجزًا للتحرر من قيوده، ثم تكلم هاموند.

«هاري، هذا فظيع.»

«أجل، فظيع.»

«لكنه ليس غير قابل للتفسير.»

«غير قابل للتفسير! ماذا تعني؟ مثل هذا الشيء لم يحدث منذ ولادة العالم، لا أعرف ماذا أفكر يا هاموند.
الله أثبت أنني لست مجنونًا وأن هذا ليس وهمًا جنونيًا!»

«لنستدل قليلًا يا هاري، هنا جسد صلب نلمسه، لكننا لا نستطيع رؤيته. الحقيقة غير عادية إلى حد أنها تصدمنا بالرعب، ألا يوجد مثيل، مع ذلك، لمثل هذه الظاهرة؟ خذ قطعة من الزجاج النقي، إنها قابلة للمس وشفافة. إن خشونة كيميائية معينة هي كل ما يمنعها من أن تكون شفافة تمامًا إلى حد أن تكون غير مرئية كليًا.
ليس مستحيلًا نظريًا، انتبه، صنع زجاج لا يعكس شعاعًا واحدًا من الضوء — زجاج نقي ومتجانس في ذراته إلى حد أن أشعة الشمس تمر عبره كما تمر عبر الهواء، منكسرة لكن غير منعكسة، نحن لا نرى الهواء، ومع ذلك نشعر به.»

«هذا كله حسن يا هاموند، لكن هذه مواد جامدة. الزجاج لا يتنفس، الهواء لا يتنفس.
هذا الشيء له قلب يخفق — وإرادة تحركه — ورئتان تعملان وتستنشقان وتتنفسان.»

أجاب بجدية:
«أنت تنسى الظواهر الغريبة التي سمعنا عنها كثيرًا مؤخرًا.
في الاجتماعات المسماة «حلقات الأرواح»، دُسّت أيدٍ غير مرئية في أيدي الأشخاص حول الطاولة — أيدٍ دافئة لحمية بدت تنبض بحياة فانية.»

«ماذا؟ هل تعتقد إذن أن هذا الشيء هو —»

كان الجواب الرسمي:
«لا أعرف ما هو؛ لكن إن شاءت الآلهة، سأحققه تحقيقًا وافيًا بمساعدتك.»

راقبنا معًا، ندخن كثيرًا من الغلايين، طوال الليل، بجانب سرير الكائن غير الأرضي الذي كان يتقلب ويلهث حتى بدا منهكًا تمامًا.
ثم عرفنا من التنفس المنخفض المنتظم أنه نائم.

في الصباح التالي كان المنزل كله في حركة.
تجمع النزلاء على الهبوط خارج غرفتي، وكنت أنا وهاموند أسدين. كان علينا الإجابة عن ألف سؤال عن حالة سجيننا غير العادي، لأنه حتى ذلك الحين لم يكن قد حُثّ أحد في المنزل سوانا على وضع قدمه في الشقة.

كان المخلوق مستيقظًا.
دلّ على ذلك الطريقة التشنجية التي تحركت بها أغطية السرير في محاولاته للهروب
كان هناك شيء مرعب حقًا في رؤية تلك العلامات غير المباشرة، كما كانت، لتلك التلويحات الرهيبة والصراعات الممزقة من الألم من أجل الحرية والتي كانت هي نفسها غير مرئية.

كنت أنا وهاموند قد أرهقنا أذهاننا طوال الليل الطويل لاكتشاف وسيلة ندرك بها شكل اللغز ومظهره العام.
على قدر ما استطعنا أن نتبين بتمرير أيدينا على جسد المخلوق، كانت خطوطه وملامحه بشرية.

كان له فم؛ ورأس مستدير أملس بلا شعر؛ وأنف، مع ذلك، كان قليل الارتفاع فوق الوجنتين؛ ويداه وقدماه كانتا تبدوان كيدَي وقدمَي صبي.
في البداية فكرنا في وضع الكائن على سطح أملس ورسم خطوطه بالطباشير، كما يرسم صانعو الأحذية خطوط القدم.
تُرك هذا المخطط لأنه لا قيمة له. مثل هذه الخطوط لن تعطي أدنى فكرة عن تشكيله.

خطرت لي فكرة سعيدة، سنأخذ قالبًا منه بالجبس الباريسي، هذا سيعطينا الشكل الصلب ويلبي كل رغباتنا، لكن كيف نفعل ذلك؟ حركات المخلوق ستفسد تصلب الغطاء البلاستيكي وتشوه القالب.
فكرة أخرى، لمَ لا نعطيه الكلوروفورم؟ كانت لديه أعضاء تنفسية — وهذا واضح من تنفسه.

بعد أن يصبح في حالة فقدان وعي، يمكننا أن نفعل به ما نشاء.
أُرسل في طلب الدكتور إكس —؛ وبعد أن تعافى الطبيب الجدير من صدمة الدهشة الأولى، شرع في إعطاء الكلوروفورم.

بعد ثلاث دقائق تمكنا من إزالة الأغلال من جسد المخلوق، وكان نحات معروف في هذه المدينة منشغلًا بتغطية الشكل غير المرئي بالطين الرطب.
بعد خمس دقائق أخرى كان لدينا قالب، وقبل المساء كان لدينا نسخة تقريبية خشنة من اللغز.
كان شكله كشكل إنسان — مشوه، غريب، ومروع، لكنه مع ذلك إنسان.
كان صغيرًا، لا يزيد ارتفاعه على أربعة أقدام وبعض البوصات، وأظهرت أطرافه تطورًا عضليًا لا نظير له.

كان وجهه يفوق في البشاعة كل ما رأيته في حياتي، غوستاف دوريه، أو كالو، أو توني يوهانوت، لم يتصوروا قط شيئًا بهذه البشاعة.
هناك وجه في إحدى رسوم الأخير لـ «رحلة تسرك» يقترب إلى حد ما من محيا هذا المخلوق، لكنه لا يعادله، كان علم الفراسة لما كنت أتخيله غولًا. كان يبدو كأنه قادر على التغذي على لحم البشر.

بعد أن أشبعنا فضولنا، وألزمنا كل من في المنزل بالسرية، أصبح السؤال: ماذا نفعل بلغزنا؟ كان من المستحيل أن نبقي مثل هذا الرعب في منزلنا؛ وكان من المستحيل بالقدر نفسه أن يُطلق مثل هذا الكائن الفظيع على العالم.
أعترف بأنني كنت سأصوّت بسرور لتدمير المخلوق. لكن من يتحمل المسؤولية؟ من يتولى إعدام هذا الشبح الرهيب لإنسان؟ يومًا بعد يوم كان هذا السؤال يُبحث بجدية، غادر النزلاء جميعًا المنزل.

كانت السيدة موفات في يأس، وهددتني أنا وهاموند بكل أنواع العقوبات القانونية إن لم نُزل هذا المسخ.

كان جوابنا:
«سنذهب إن أردتِ، لكننا نرفض أخذ هذا المخلوق معنا، أزيليه أنتِ إن شئتِ. لقد ظهر في منزلك، عليكِ تقع المسؤولية.»

على هذا لم يكن هناك بالطبع جواب، لم تستطع السيدة موفات، بالحب أو بالمال، الحصول على شخص يستطيع أن يقترب من هذا الشيء.

كان أغرب جزء في القضية أننا كنا جاهلين تمامًا بما يتغذى عليه المخلوق عادة، كل ما استطعنا التفكير فيه من غذاء وُضع أمامه، لكنه لم يُلمس قط. كان فظيعًا أن نقف بجانبه، يومًا بعد يوم، ونرى الملابس تتقلب، ونسمع التنفس الصعب، ونعرف أنه يتضور جوعًا.

مرت عشرة أيام، اثنا عشر يومًا، أسبوعان، وما زال حيًا.
غير أن نبضات القلب كانت تضعف يومًا بعد يوم، وكانت قد توقفت الآن تقريبًا تمامًا، كان واضحًا أن المخلوق يموت من نقص الغذاء.

وبينما كان صراع الحياة الرهيب هذا مستمرًا، شعرت بالبؤس، لم أستطع النوم في الليالي، رغم بشاعة المخلوق، كان من المثير للشفقة التفكير في الآلام التي كان يعانيها.

أخيرًا مات.

وجدته أنا وهاموند باردًا متيبسًا في صباح أحد الأيام في السرير.
كان القلب قد توقف عن النبض، والرئتان عن الشهيق.

أسرعنا بدفنه في الحديقة، كانت جنازة غريبة، إسقاط ذلك الجسد غير المرئي في الحفرة الرطبة.
أعطيت قالب شكله للدكتور إكس، الذي يحفظه في متحفه في الشارع العاشر.

بما أنني على وشك رحلة طويلة قد لا أعود منها، فقد كتبت هذه الرواية عن حدث هو أغرب ما وصل إلى علمي.

رعب المرتفعات

أرثر كونان دويل



إن فكرة أن تكون الرواية غير العادية التي أُطلق عليها اسم «مقتطف جويس-أرمسترونغ» مجرد مزحة عملية دبّرها شخص مجهول، ملعون بحسّ دعابة منحرف وشرير، قد تخلى عنها الآن كل من درسوا المسألة دراسة جدّية.

فأشدّ المدبّرين فظاعةً وخصوبةً في الخيال سيتردد قبل أن يربط تخيلاته المريضة بحقائق مؤكدة ومأساوية تعزّز هذا البيان.

ومع أن الادعاءات الواردة فيه مدهشة، بل وحشية، فإنها تفرض نفسها على الذهن العام، وتؤكد أنه لا بد لنا من إعادة تكييف أفكارنا مع الوضع الجديد. ويبدو أن عالمنا هذا لا يفصله عن خطر فريد وغير متوقع سوى هامش ضيق وغير مستقر من الأمان.

وسأحاول في هذه الرواية، التي تعيد إنتاج الوثيقة الأصلية في شكلها المجزأ بالضرورة، أن أعرض على القارئ كل الحقائق حتى تاريخه، وأستهل بياني بالقول إنه إن وُجد من يشكّ في رواية جويس-أرمسترونغ، فلا يمكن أن يكون هناك أي شك على الإطلاق في الحقائق المتعلقة بالملازم ميرتل من البحرية الملكية والسيد هاي كونور، اللذين لقيا حتفهما بلا ريب بالطريقة الموصوفة.

عُثر على «مقتطف جويس-أرمسترونغ» في الحقل المسمى «لوير هايكوك»، الواقع على بعد ميل واحد غرب قرية «ويثيهام»، على الحدود بين كنت وساسكس.

وكان ذلك في الخامس عشر من سبتمبر الماضي، حين لاحظ عامل زراعي يدعى جيمس فليان، يعمل لدى المزارع ماثيو دود من مزرعة «تشانتري» في ويثيهام، غليونًا من خشب الخلنج ملقى قرب الممر الترابي الذي يحاذي السياج في «لوير هايكوك».

وعلى بعد خطوات منه التقط زوجًا من منظار مكسور. وأخيرًا، بين بعض نبات القراص في الخندق، لمح كتابًا مسطحًا مغلفًا بالقماش، تبيّن أنه دفتر ملاحظات بأوراق قابلة للفصل، بعضها قد انفكّ وكان يرفرف على طول قاعدة السياج.

جمع هذه الأوراق، لكن بعضها، بما في ذلك الورقة الأولى، لم يُعثر عليه أبدًا، مما يترك فجوة مؤسفة في هذا البيان البالغ الأهمية.
أخذ العامل الدفتر إلى سيده، الذي عرضه بدوره على الدكتور ج. ه. أثيرتون من هارتفيلد.
أدرك هذا الرجل فورًا الحاجة إلى فحص خبير، فأُرسلت المخطوطة إلى «نادي إيرا» في لندن، حيث توجد الآن.

الصفحتان الأوليان من المخطوطة مفقودتان.
كما أن هناك صفحة ممزقة في نهاية الرواية، وإن كان لا يؤثر أي من ذلك في تماسك القصة العام.
ويُرجّح أن الافتتاحية المفقودة تتعلق بسجل مؤهلات السيد جويس-أرمسترونغ كرائد طيران، وهي مؤهلات يمكن استقاؤها من مصادر أخرى ويُسلّم بأنها لا تُضاهى بين طياري إنجلترا.

فقد كان يُنظر إليه لسنوات عديدة باعتباره من أجرأ الطيارين وأكثرهم ذكاءً، وهو مزيج مكّنه من ابتكار واختبار عدة أجهزة جديدة، بما في ذلك الملحق الجيروسكوبي الشائع المعروف باسمه.
كُتب الجسم الرئيسي للمخطوطة بالحبر بعناية، لكن الأسطر القليلة الأخيرة مكتوبة بالرصاص وهي بالغة الرداءة إلى حد يصعب معه قراءتها — تمامًا، في الواقع، كما قد يُتوقع أن تبدو لو خُطّت على عجل من مقعد طائرة متحركة.

يُضاف إلى ذلك أن هناك بقعًا عدة، على الصفحة الأخيرة وعلى الغلاف الخارجي، وقد أعلن خبراء وزارة الداخلية أنها بقع دم — من المحتمل أن تكون بشرية وبالتأكيد من الثدييات.

وكون شيء يشبه إلى حد بعيد كائن الملاريا قد اكتُشف في هذا الدم، وأن جويس-أرمسترونغ معروف بأنه عانى من الحمى المتقطعة، هو مثال رائع على الأسلحة الجديدة التي وضعها العلم الحديث في أيدي محققينا.

والآن كلمة عن شخصية مؤلف هذا البيان الذي يشكّل حقبة.
كان جويس-أرمسترونغ، وفقًا للأصدقاء القلائل الذين عرفوا الرجل حقًا، شاعرًا وحالمًا، فضلًا عن كونه ميكانيكيًا ومخترعًا.

كان رجلًا ذا ثروة كبيرة، أنفق الكثير منها سعيًا وراء هوايته الطيرانية.
كان لديه أربع طائرات خاصة في حظائره قرب ديفايز، ويُقال إنه قام بما لا يقل عن مئة وسبعين تحليقًا خلال العام الماضي.

كان رجلًا متحفظًا ذا نزوات داكنة، يتجنب فيها مجتمع أقرانه، يقول الكابتن دينجرفيلد، الذي عرفه أفضل من أي شخص آخر، إنه كانت هناك أوقات يهدد فيها غرابته بأن تتطور إلى شيء أكثر خطورة.

ومن مظاهر ذلك عادته في حمل بندقية معه في طائرته. ومنها أيضًا الأثر المرضي الذي تركه سقوط الملازم ميرتل على عقله.
فقد سقط ميرتل، الذي كان يحاول تحطيم الرقم القياسي في الارتفاع، من ارتفاع يزيد على ثلاثين ألف قدم.
ومن المروع أن نروي أن رأسه قد مُحي تمامًا، مع أن جسده وأطرافه حافظت على شكلها.

وفي كل تجمع للطيارين، وفقًا لدينجرفيلد، كان جويس-أرمسترونغ يسأل بابتسامة غامضة: «وأين، بحق السماء، رأس ميرتل؟»

وفي مناسبة أخرى بعد العشاء، في مأدبة مدرسة الطيران في سهل سالزبري، بدأ نقاشًا حول ما سيكون أكثر خطر دائم سيواجهه الطيارون.

وبعد أن استمع إلى آراء متتالية حول الجيوب الهوائية، والعيوب في التصنيع، والميلان الزائد، انتهى به الأمر إلى هز كتفيه ورفض طرح آرائه الخاصة، مع أنه أعطى انطباعًا بأنها تختلف عن أي مما طرحه رفاقه.

يجدر بالذكر أنه بعد اختفائه التام وُجد أن شؤونه الخاصة كانت مرتبة بدقة قد تدل على أنه كان لديه إحساس قوي مسبق بالكارثة.

وبهذه التوضيحات الأساسية سأورد الآن الرواية كما هي بالضبط، بدءًا من الصفحة الثالثة من دفتر الملاحظات المشبع بالدم:

«ومع ذلك، عندما تعشيت في ريمس مع كوزيلي وغوستاف ريموند، وجدت أن أيًا منهما لم يكن مدركًا لأي خطر خاص في الطبقات العليا من الغلاف الجوي.
لم أقل فعليًا ما كان في فكري، لكنني اقتربت من ذلك إلى حد أنه لو كان لديهما أي فكرة مماثلة لما فشلا في التعبير عنها.
لكنهما، بعد كل شيء، رفيقان فارغان ومغروران... لا يفكّران في شيء أبعد من رؤية أسمائهما السخيفة في الصحف.»

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن أيًا منهما لم يتجاوز قط مستوى العشرين ألف قدم بكثير.
بالطبع، ارتفع البشر أعلى من ذلك في المناطيد وفي تسلّق الجبال.
ولا بد أن الطائرة تدخل منطقة الخطر على مستوى أعلى من تلك النقطة بكثير — بافتراض دائمًا أن هواجسي صحيحة.

«لقد مضى على الطيران معنا الآن أكثر من عشرين عامًا، وقد يسأل المرء بحق: لماذا لا يبدو هذا الخطر إلا في عصرنا؟ الجواب واضح.
في الأيام القديمة للمحركات الضعيفة، حين كان محرك «جنوم» أو «غرين» بقوة مئة حصان يُعدّ كافيًا لكل حاجة، كانت الرحلات محدودة جدًا.
أما الآن وقد أصبح محرك الثلاثمئة حصان هو القاعدة لا الاستثناء، فقد صارت الزيارات إلى الطبقات العليا أسهل وأكثر شيوعًا.

بعضنا يتذكر كيف صنع غارتوس، في شبابنا، سمعة عالمية ببلوغه تسعة عشر ألف قدم، وكان الطيران فوق جبال الألب يُعدّ إنجازًا بارزًا.
أما معيارنا الآن فقد ارتفع إلى حد لا يقاس، وهناك عشرون رحلة عالية مقابل واحدة في السنوات السابقة، وقد خيض الكثير منها دون أذى، لقد بلغنا مستوى الثلاثين ألف قدم مرارًا وتكرارًا دون انزعاج يتجاوز البرد والربو.

وماذا يثبت ذلك؟ قد ينزل زائر على هذا الكوكب ألف مرة ولا يرى نمرًا قط.
ومع ذلك فالنمور موجودة، ولو حدث أن نزل في أدغال فقد يُفترس.
هناك أدغال في الهواء الأعلى، وفيها كائنات أسوأ من النمور، أعتقد أنهم سيضعون خرائط لهذه الأدغال بدقة في الوقت المناسب.

وحتى في هذه اللحظة أستطيع أن أسمّي اثنين منها.
أحدهما يقع فوق منطقة باو-بياريتز في فرنسا، والآخر يقع فوق رأسي تمامًا وأنا أكتب هنا في بيتي في ويلتشير، وأراني أظن أن هناك ثالثًا في منطقة هومبورغ-فيسبادن.

«كان اختفاء الطيارين أول ما أثار تفكيري، بالطبع، قال الجميع إنهم سقطوا في البحر، لكن ذلك لم يقنعني على الإطلاق.
أولًا، كان هناك فيرييه في فرنسا؛ عُثر على آلته قرب بايون، لكنهم لم يحصلوا على جثته قط.

وكانت هناك أيضًا حالة باكستر، الذي اختفى، مع أنه عُثر على محركه وبعض التثبيتات الحديدية في غابة في ليسترشير.

وفي تلك الحالة، يصرّح الدكتور ميدلتون من أيمزبيري، الذي كان يراقب الرحلة بتلسكوب، أنه قبل أن تحجب السحب الرؤية بقليل رأى الآلة، وكانت على ارتفاع هائل، ترتفع فجأة وبشكل عمودي إلى أعلى في سلسلة من النهضات المتقطعة، على نحو كان يظنه مستحيلًا. وكانت تلك آخر مرة يُرى فيها باكستر.
ظهرت مراسلات في الصحف، لكنها لم تؤدّ إلى شيء، وقد حدثت حالات أخرى مشابهة، ثم كان موت هاي كونور.

يا لكثرة الثرثرة حينها عن لغز جوي لم يُحلّ، ويا لكثرة الأعمدة في صحف النصف بنس، ومع ذلك كم كان قليلًا ما فُعل للوصول إلى جذر المسألة! لقد نزل في هبوط انزلاقي هائل من ارتفاع مجهول.
لم ينزل عن آلته قط ومات في مقعد القيادة، مات بسبب ماذا؟ قال الأطباء: مرض القلب.
هراء! كان قلب هاي كونور سليمًا مثل قلبي.

وماذا قال فينابلز؟ كان فينابلز الرجل الوحيد الذي كان إلى جانبه حين مات. قال إنه كان يرتجف وبدا كرجل أُصيب بذعر شديد.
قال فينابلز: مات من الخوف، لكنه لم يستطع تخيّل ما الذي أرعبه.
لم يقل لفينابلز سوى كلمة واحدة بدت مثل «Monstrous» — أي «وحشي/مروّع».

لم يستطيعوا أن يصنعوا من ذلك شيئًا في التحقيق، لكنني أستطيع أن أصنع منه شيئًا، وحوش! كانت تلك آخر كلمة قالها هاري هاي كونور المسكين.
وقد مات بالفعل من الخوف، تمامًا كما ظنّ فينابلز.

«ثم كان رأس ميرتل، هل تعتقدون حقًا — هل يعتقد أي شخص حقًا — أن رأس رجل يمكن أن يُدقّ بالكامل داخل جسده بقوة السقوط؟ حسنًا، ربما يكون ذلك ممكنًا، لكنني، عن نفسي، لم أعتقد قط أن الأمر كان كذلك مع ميرتل.

أما الشحم على ملابسه — «كلها لزجة بالشحم»، كما قال أحدهم في التحقيق. عجيب أن لا أحد بدأ التفكير بعد ذلك! أنا فكّرت، لكنني كنت أفكّر منذ وقت طويل.
لقد قمت بثلاثة صعودات — كم كان دينجرفيلد يسخر مني بسبب بندقيتي! — لكنني لم أكن مرتفعًا بما يكفي.
أما الآن، مع هذه الآلة الجديدة من طراز بول فيرونر ومحركها «روبور» بقوة مئة وخمسة وسبعين، فينبغي أن أبلغ الثلاثين ألفًا بسهولة غدًا.

سأحاول تحطيم الرقم القياسي، وربما تكون لي محاولة/طلقة على شيء آخر أيضًا. بالطبع الأمر خطير. وإذا أراد المرء أن يتجنب الخطر فالأفضل له أن يبتعد عن الطيران تمامًا وأن يستقرّ أخيرًا في خفّ صوفي وروب.
لكنني سأزور أدغال الهواء غدًا — وإن كان هناك أي شيء فسأعرفه. إن عدت، فسأجد نفسي نوعًا ما من المشاهير.

وإن لم أعد، فقد يشرح دفتر الملاحظات هذا ما أحاول فعله، وكيف فقدت حياتي في سبيل ذلك، لكن لا كلام فارغ عن الحوادث أو الألغاز، أرجوكم.

«اخترت طائرتي الأحادية الجناح من طراز بول فيرونر لهذه المهمة... لا شيء يضاهي الطائرة أحادية الجناح حين يكون هناك عمل حقيقي يُنجز.»

لقد أدرك بومونت ذلك في الأيام المبكرة جدًا.
فمن مزاياها أنها لا تخشى الرطوبة، ويبدو الطقس كما لو كنا سنكون في السحاب طوال الوقت.
إنها نموذج صغير جميل، يستجيب ليد القائد كجواد رقيق الفم.
والمحرك محرك دوّار من طراز روبور بعشر أسطوانات، ينتج قوة مئة وخمسة وسبعين حصانًا.

فيه كل التحسينات الحديثة: جسم مغلق، وزحّافات هبوط عالية التقوّس، وفرامل، ومثبّتات جيروسكوبية، وثلاث سرعات تُشغَّل بتغيير زاوية الأجنحة على مبدأ الستارة الفينيسية.
أخذت معي بندقية واثنتي عشرة خرطوشة محشوة بالرصاص الكبير.
كان عليك أن ترى وجه بيركنز، ميكانيكيي القديم، حين أمرته بوضعها.

كنت أرتدي ملابس كأنني مستكشف في القطب الشمالي، مع قميصين صوفيين تحت وزرة العمل، وجوارب سميكة داخل حذائي المبطّن، وقبعة عاصفة ذات أطراف، ونظارتي التلك. كان الجو خانقًا خارج الحظائر، لكنني كنت ذاهبًا إلى قمة الهيمالايا، وكان عليّ أن ألبس ما يناسب المهمة.

عرف بيركنز أن هناك شيئًا ما يُدبَّر، وتوسّل إليّ أن آخذه معي.
ربما كنت سأفعل لو كنت أستخدم الطائرة ذات الجناحين، لكن الأحادية الجناح عمل فردي إذا أردت أن تستخرج منها آخر قدم من قوة الرفع.
بالطبع، أخذت كيس أكسجين؛ فالرجل الذي يسعى لتحطيم رقم الارتفاع القياسي بدونه إما سيتجمد أو سيختنق أو الاثنان معًا.

«ألقيت نظرة جيدة على الأجنحة، ودوّاسة الدفة، وذراع الصعود قبل أن أصعد.
كان كل شيء في ترتيبه بحسب ما استطعت أن أرى، ثم شغّلت المحرك فوجدته يعمل بسلاسة.
وحين أطلقوني، ارتفعت على الفور تقريبًا بأدنى سرعة.
دُرتُ حول حقلي المنزلي مرة أو مرتين فقط لتدفئتها، ثم، وأنا ألوّح لبيركنز والآخرين، سطّحت أجنحتي ووضعتها على أعلى سرعة.

انطلقت كالسنونو مع الريح لمسافة ثمانية أو عشرة أميال حتى أدرت مقدمتها قليلًا إلى أعلى فبدأت تصعد في دوامة كبيرة نحو كومة السحاب فوقي.
من الأهمية بمكان أن تصعد ببطء وتكيّف نفسك مع الضغط أثناء الصعود.

«كان يومًا دافئًا وخانقًا بالنسبة لسبتمبر الإنجليزي، وكان هناك سكون وثقل يوحيان بمطر وشيك.
بين الحين والآخر كانت تأتي هبّات مفاجئة من الريح من الجنوب الغربي — إحداها كانت عاصفة وغير متوقعة لدرجة أنها أخذتني على غفلة وأدارتني نصف دورة للحظة.
أتذكر الزمن الذي كانت فيه الهبّات والدوّامات والجيوب الهوائية أشياء خطرة — قبل أن نتعلم أن نضع قوة قاهرة في محركاتنا.

وما إن وصلت إلى كومات السحاب، والعداد يشير إلى ثلاثة آلاف، حتى نزل المطر، يا إلهي، كيف انهمر! كان يقرع على أجنحتي ويجلد وجهي، ويشوّش نظارتي حتى كنت بالكاد أرى.

خفّضت إلى سرعة منخفضة، لأن السير ضده كان مؤلمًا، وعندما ارتفعت أكثر تحوّل إلى بَرَد، فاضطررت إلى إدارة الذيل نحوه.
إحدى أسطواناتي كانت معطلة — قابس قذر، كما أظن — لكنني كنت ما زلت أصعد بثبات مع قوة وفيرة، بعد قليل مرّت المشكلة، مهما كانت، وسمعت الخرخرة الكاملة العميقة الحنجرة — العشر تغني كواحدة.

هنا يأتي جمال كواتم الصوت الحديثة، يمكننا أخيرًا التحكم في محركاتنا بالأذن، كم تصرخ وتصيح وتنتحب عندما تكون في ورطة! كل تلك الصرخات طلبًا للمساعدة كانت تضيع في الأيام القديمة، حين كان كل صوت يُبتلع في الضجيج الوحشي للآلة.
لو فقط استطاع الطيارون الأوائل أن يأتوا ليروا جمال وكمال هذه الآلية التي اشتُريت بأرواحهم!

«حوالي التاسعة والنصف كنت أقترب من السحاب.
في الأسفل مني، حيث كان كل شيء ضبابيًا ومظللًا بالمطر، كانت تمتد الرقعة الواسعة من سهل سالزبري.
كانت نصف دزينة من الطائرات تؤدي عملًا روتينيًا على مستوى الألف قدم، تبدو كسنونوات سوداء صغيرة على الخلفية الخضراء.

أجرؤ على القول إنهن كنّ يتساءلن ماذا أفعل عاليًا في أرض السحاب.
فجأة انسحبت ستارة رمادية عبرت تحتي، والطيات الرطبة للبخار تدور حول وجهي، كان البرد لزجًا وبائسًا.
لكنني كنت فوق عاصفة البَرَد، وكان ذلك مكسبًا.

كانت السحابة داكنة وسميكة كضباب لندن.

وفي قلقي لأتخلص منها، رفعت مقدمتها حتى رنّ جرس الإنذار التلقائي وبدأت فعليًا أنزلق إلى الخلف، كانت أجنحتي المبللة والقطرة قد جعلتني أثقل مما ظننت، لكنني كنت بعد قليل في سحاب أخف، وسرعان ما تجاوزت الطبقة الأولى.

كانت هناك طبقة ثانية — بلون الأوبال وصوفية — على ارتفاع كبير فوق رأسي، وسقف أبيض متصل فوق، وأرضية داكنة متصلة تحت، والطائرة الأحادية الجناح تكدح صعودًا في دوامة واسعة بينهما.
إنها لعزلة قاتلة في هذه الفسحات السحابية. مرة مرّ بجانبي سرب كبير من بعض الطيور المائية الصغيرة، وهي تطير بسرعة شديدة نحو الغرب.

كان الهمس السريع لأجنحتها وصياحها الموسيقي مبهجًا لأذني، أظن أنها كانت بطًا بريًا، لكنني لست سوى عالم حيوان هاوٍ.
والآن بعد أن صرنا نحن البشر طيورًا، لا بد لنا حقًا أن نتعلم أن نعرف إخواننا بالرؤية. كانت الريح تحتي تدور وتُمايل السهل السحابي الواسع.

عندما تكوّنت في تلك السحابة دوامة كبيرة — دوامة من البخار — ومن خلالها، كما لو كان المرء ينظر عبر قمع، لمحت العالم البعيد.
كانت طائرة كبيرة بيضاء ذات جناحين تمرّ على عمق هائل تحتي.
أظنها كانت طائرة خدمة البريد الصباحية بين بريستول ولندن.
ثم دار التيار إلى الداخل مرة أخرى، وعادت العزلة العظيمة غير منقطعة.

كانت السحابة داكنة وسميكة كضباب لندن.

وفي قلقي لأتخلص منها، رفعت مقدمتها حتى رنّ جرس الإنذار التلقائي وبدأت فعليًا أنزلق إلى الخلف، كانت أجنحتي المبللة والقطرة قد جعلتني أثقل مما ظننت، لكنني كنت بعد قليل في سحاب أخف، وسرعان ما تجاوزت الطبقة الأولى.

كانت هناك طبقة ثانية — بلون الأوبال وصوفية — على ارتفاع كبير فوق رأسي، وسقف أبيض متصل فوق، وأرضية داكنة متصلة تحت، والطائرة الأحادية الجناح تكدح صعودًا في دوامة واسعة بينهما.
إنها لعزلة قاتلة في هذه الفسحات السحابية. مرة مرّ بجانبي سرب كبير من بعض الطيور المائية الصغيرة، وهي تطير بسرعة شديدة نحو الغرب.

كان الهمس السريع لأجنحتها وصياحها الموسيقي مبهجًا لأذني، أظن أنها كانت بطًا بريًا، لكنني لست سوى عالم حيوان هاوٍ.
والآن بعد أن صرنا نحن البشر طيورًا، لا بد لنا حقًا أن نتعلم أن نعرف إخواننا بالرؤية. كانت الريح تحتي تدور وتُمايل السهل السحابي الواسع.

عندما تكوّنت في تلك السحابة دوامة كبيرة — دوامة من البخار — ومن خلالها، كما لو كان المرء ينظر عبر قمع، لمحت العالم البعيد.
كانت طائرة كبيرة بيضاء ذات جناحين تمرّ على عمق هائل تحتي.
أظنها كانت طائرة خدمة البريد الصباحية بين بريستول ولندن.
ثم دار التيار إلى الداخل مرة أخرى، وعادت العزلة العظيمة غير منقطعة.

«بعد العاشرة بقليل لمستُ الحافة السفلى من طبقة السحاب العليا، كانت تتكون من بخار رقيق شفاف ينجرف بسرعة من الغرب.
وكانت الريح ترتفع باطراد طوال هذا الوقت، حتى صارت الآن تهبّ نسيمًا حادًا — ثمانية وعشرين ميلًا في الساعة حسب مقياسي.
وكان الجو باردًا جدًا بالفعل، رغم أن مقياس الارتفاع عندي لم يكن يشير إلا إلى تسعة آلاف قدم.

كانت المحركات تعمل بجمال، وكنا نطنّ صعودًا بثبات. كانت كتلة السحاب أكثر كثافة مما توقعت، لكنها في النهاية ترقّقت إلى ضباب ذهبي أمامي، ثم في لحظة انطلقتُ منها، فإذا بالسماء الصافية والشمس ساطعة فوق رأسي — كل شيء أزرق وذهبي فوق، وكل شيء فضي لامع تحت، سهل واحد واسع متلألئ بقدر ما وصلت إليه عيناي. كانت الساعة العاشرة والربع، وكانت إبرة الباروغراف تشير إلى اثني عشر ألفًا وثمانمئة.

صعدت وصعدت، وأذناي مركزتان على الخرخرة العميقة لمحركي، وعيناي مشغولتان دائمًا بالساعة، ومؤشر الدوران، وذراع البنزين، ومضخة الزيت.
لا عجب أن يُقال إن الطيارين جنس لا يعرف الخوف؛ فمع كل هذه الأشياء التي يجب التفكير فيها، لا يبقى وقت للقلق على النفس.
في هذا الوقت تقريبًا لاحظت كم تكون البوصلة غير موثوقة عند ارتفاع معين فوق الأرض.
فعند خمسة عشر ألف قدم كانت بوصلتي تشير إلى الشرق وجزء من الجنوب، فأعطتني الشمس والريح اتجاهاتي الحقيقية.

«كنت آمل أن أصل إلى سكون أبدي في هذه الارتفاعات العالية، لكن مع كل ألف قدم من الصعود كانت العاصفة تشتد.
كانت آلتي تئن وترتجف في كل مفصل وبرشام وهي تواجهها، وكانت تكتسح كورقة عندما أمالها عند الدوران، منزلقة مع الريح بسرعة أكبر، ربما، مما تحرك أي إنسان فانٍ من قبل.
ومع ذلك كان عليّ دائمًا أن أدور مرة أخرى وأبحر صعودًا في عين الريح، لأنني لم أكن أسعى وراء رقم قياسي في الارتفاع فحسب.
فبحسب كل حساباتي، كانت أدغال الهواء فوق ويلتشير صغيرة، وكان كل جهدي قد يضيع إذا ضربت الطبقات الخارجية عند نقطة أبعد.

«عندما وصلت إلى مستوى تسعة عشر ألف قدم، وكان ذلك حوالي منتصف النهار، كانت الريح شديدة لدرجة أنني نظرت ببعض القلق إلى دعامات أجنحتي، متوقعًا في أي لحظة أن أراها تنقطع أو تتراخى.
حتى أنني أطلقت المظلة خلفي، وثبّت خطافها في حلقة حزامي الجلدي، حتى أكون مستعدًا للأسوأ.
الآن كان الوقت الذي يُدفع فيه ثمن أي عمل مرتجل من الميكانيكي بحياة الطيار، لكنها تماسكت بشجاعة، كان كل حبل ودعامة يطنّ ويرتجف كأوتار قيثارة، لكنه كان مجيدًا أن أرى كيف أنها، على الرغم من كل الضرب والتلاطم، ظلت قاهرة الطبيعة وسيدة السماء.
لا بد أن في الإنسان نفسه شيئًا إلهيًا حتى يرتقي هكذا فوق القيود التي بدا أن الخلق يفرضها — يرتقي أيضًا بمثل هذا التفاني النكراني البطولي الذي أظهره غزو الهواء.
حديث عن انحطاط البشر! متى كُتبت مثل هذه القصة في سجلات جنسنا؟

«كانت هذه الأفكار في رأسي وأنا أصعد ذلك المستوى المائل الوحشي، والريح تضرب وجهي أحيانًا وتصفّر خلف أذنيّ أحيانًا أخرى، بينما كانت أرض السحاب تحتي تتباعد إلى مسافة حتى صارت الطيات والتلال الفضية كلها تتسطح إلى سهل واحد لامع مسطح.

لكن فجأة كانت لدي تجربة مروعة وغير مسبوقة، لقد عرفت من قبل ما معنى أن تكون في ما يسميه جيراننا «توربيون»، لكن ليس أبدًا على هذا النطاق، ذلك النهر الهائل الجارف من الريح الذي تحدثت عنه، كما يبدو، يحتوي في داخله على دوامات كانت وحشية مثله.

دون أي تحذير، سُحبت فجأة إلى قلب إحداها.
دُرتُ حول نفسي لدقيقة أو دقيقتين بسرعة جعلتني أكاد أفقد حواسي، ثم سقطت فجأة، والجناح الأيسر في المقدمة، إلى أسفل قمع الفراغ في المركز. سقطت كالحجر، وفقدت حوالي ألف قدم.

كان حزامي وحده هو الذي أبقاني في مقعدي، والصدمة وانقطاع النفس جعلتاني أتدلى نصف فاقد للوعي فوق جانب جسم الطائرة. لكنني دائمًا قادر على جهد أعظم — إنها ميزتي العظيمة الوحيدة كطيار، كنت مدركًا أن الهبوط كان أبطأ.

كانت الدوامة مخروطًا أكثر منها قمعًا، وكنت قد وصلت إلى القمة. وبجذبة مروعة، قاذفًا ثقلي كله إلى جانب واحد، سطّحت أجنحتي وأبعدت مقدمتها عن الريح، في لحظة انطلقتُ من الدوامات وكنت أهيم منزلقًا في السماء.

ثم، مرتجفًا لكن منتصرًا، أدرت مقدمتها إلى أعلى وبدأت مرة أخرى طحني الثابت في الدوامة الصاعدة.
أخذت انعطافة كبيرة لتجنب نقطة الخطر في الدوامة، وسرعان ما كنت فوقها بأمان.»

بعد الواحدة بقليل كنت على ارتفاع واحد وعشرين ألف قدم فوق مستوى سطح البحر، ولفرحي العظيم كنت قد تجاوزت العاصفة، ومع كل مئة قدم من الصعود كان الهواء يصبح أسكن.
ومن ناحية أخرى، كان الجو باردًا جدًا، وكنت واعيًا بذلك الغثيان الغريب الذي يصاحب تخلخل الهواء.

ولأول مرة فككت فوهة كيس الأكسجين وأخذت شهيقًا عابرًا من الغاز المجي، كنت أشعر به يسري كشراب منعش في عروقي، وكنت منتعشًا لدرجة السكر تقريبًا.
صرخت وغنّيت وأنا أحلّق صعودًا إلى العالم الخارجي البارد الساكن.

«من الواضح جدًا بالنسبة لي أن فقدان الوعي الذي أصاب غليشر، وبدرجة أقل كوكسويل، عندما صعدا في منطاد عام 1862 إلى ارتفاع ثلاثين ألف قدم، كان بسبب السرعة الشديدة التي يتم بها الصعود العمودي.

أما القيام بذلك بانحدار سهل وتعويد النفس على انخفاض الضغط الجوي بدرجات بطيئة، فلا تظهر مثل هذه الأعراض المروعة، فعلى الارتفاع العظيم نفسه وجدت أنني حتى دون استنشاق الأكسجين أستطيع التنفس دون ضيق مفرط.

لكنه كان باردًا قارسًا، وكان مقياس الحرارة عندي عند الصفر الفهرنهايتي.
في الواحدة والنصف كنت على ارتفاع سبعة أميال تقريبًا فوق سطح الأرض، وما زلت أصعد بثبات.

غير أنني وجدت أن الهواء المخلخل كان يقدم دعمًا أقل بكثير لأجنحتي، وأن عليّ تخفيض زاوية صعودي إلى حد كبير نتيجة لذلك.
كان واضحًا بالفعل أنه حتى مع وزني الخفيف وقوة محركي العالية كانت هناك نقطة أمامي سأُمسَك عندها.
ومما زاد الطين بلة أن إحدى شمعات الإشعال كانت في ورطة مرة أخرى، وكان هناك إشعال متقطع في المحرك، كان قلبي مثقلًا بخوف الفشل.

«في ذلك الوقت تقريبًا كانت لدي تجربة غير عادية على الإطلاق.
شيء ما مرّ بجانبي كصوت أزيز في أثر من الدخان وانفجر بصوت هسيس عالٍ، قاذفًا سحابة من البخار، للحظة لم أستطع تخيل ما حدث.

ثم تذكرت أن الأرض تُقصف باستمرار بحجارة النيازك، وأنها بالكاد ستكون صالحة للسكن لو لم تتحول في كل حالة تقريبًا إلى بخار في الطبقات الخارجية للغلاف الجوي.

هذا خطر جديد لرجل الارتفاعات العالية، فقد مرّ بجانبي اثنان آخران عندما كنت أقترب من علامة الأربعين ألف قدم.
لا أستطيع أن أشك في أن الخطر عند حافة غلاف الأرض سيكون خطرًا حقيقيًا جدًا.

«كانت إبرة الباروغراف عندي تشير إلى واحد وأربعين ألفًا وثلاثمئة عندما أدركت أنني لا أستطيع المضي أبعد.
فسيولوجيًا، لم يكن الإجهاد حتى ذلك الحين أكبر مما أستطيع تحمله، لكن آلتي كانت قد وصلت إلى حدها.
الهواء المخلخل لم يقدم دعمًا ثابتًا للأجنحة، وأي ميل بسيط كان يتطور إلى انزلاق جانبي، بينما كانت تبدو بطيئة الاستجابة على أدوات التحكم.

ربما، لو كان المحرك في أفضل حالاته، لكان ألف قدم أخرى في حدود قدرتنا، لكنه كان لا يزال يشتعل بشكل متقطع، وبدا أن اثنتين من الأسطوانات العشر خارجة عن العمل.
إن لم أكن قد وصلت بالفعل إلى المنطقة التي كنت أبحث عنها، فلن أراها أبدًا في هذه الرحلة،

لكن ألم يكن ممكنًا أنني بلغتها؟ محلقًا في دوائر كصقر وحشي على مستوى الأربعين ألف قدم، تركت الطائرة الأحادية الجناح تدير نفسها، وبمنظاري المانهايم أجريت مراقبة دقيقة لما حولي.
كانت السماء صافية تمامًا؛ لم يكن هناك أي مؤشر على تلك المخاطر التي تخيلتها.

«لقد قلت إنني كنت أحلق في دوائر.
خطر لي فجأة أنني سأفعل، حسنًا لو أخذت انعطافة أوسع وفتحت مسارًا هوائيًا جديدًا.
إذا دخل الصياد أدغال الأرض فسوف يشق طريقه عبرها إذا أراد أن يجد صيده.

كان منطقي قد قادني إلى الاعتقاد بأن أدغال الهواء التي تخيلتها تقع في مكان ما فوق ويلتشير. ينبغي أن تكون هذه إلى الجنوب والغرب مني.
أخذت اتجاهاتي من الشمس، لأن البوصلة كانت ميؤوسًا منها ولم يكن هناك أي أثر للأرض يُرى — لا شيء سوى سهل السحاب الفضي البعيد.

على أي حال، حصلت على اتجاهي بأفضل ما استطعت وأبقيت مقدمتها مستقيمة نحو الهدف.
حسبت أن إمداد البنزين عندي لن يدوم أكثر من ساعة أخرى أو نحو ذلك، لكنني أستطيع تحمل استخدامه حتى آخر قطرة، لأن هبوطًا انزلاقيًا رائعًا واحدًا يمكنه في أي وقت أن يأخذني إلى الأرض.

«فجأة أدركت شيئًا جديدًا.
الهواء أمامي فقد صفاءه البلور، كان مليئًا بخيوط طويلة ممزقة من شيء لا أستطيع إلا أن أشبهه بدخان سجائر ناعم جدًا.

كان يتدلى في أكاليل ولفائف، يدور ويلتوي ببطء في ضوء الشمس. وعندما انطلقت الطائرة الأحادية الجناح عبره، شعرت بطعم خفيف للزيت على شفتيّ، وكانت هناك طبقة دهنية على الخشب في الآلة.
بدت مادة عضوية متناهية الصغر معلقة في الجو.

لم تكن بها حياة، كانت غير متبلورة ومنتشرة، تمتد لعدة أفدنة مربعة ثم تتهدب إلى الفراغ.

لا، لم تكن حية.
لكن ألم يكن ممكنًا أن تكون بقايا شيءٍ حي؟ قبل كل شيء، ألم يكن ممكنًا أن تكون غذاءً لشيءٍ حي؟ شيءٍ وحشي، تمامًا كما أن كائنات المحيط الدهنية المتواضعة هي غذاء الحوت العظيم؟ تلك الأفكار معلقة في ذهني حينما نظرت إلى الأعلى ورأيت أروع رؤية رآها إنسان على الإطلاق.
هل أستطيع أن أنقلها إليك كما رأيتها بنفسي يوم الخميس الماضي؟

تخيّل قنديلَ بحرٍ كالذي يسبح في بحارنا الصيفية، على شكل جرس، لكنه بحجم هائل — أكبر بكثير، فيما أقدّر، من قبة كاتدرائية القديس بولس.
كان لونه ورديًّا فاتحًا، تختلط به عروق خضراء رقيقة، أما هيكله الضخم فكان رقيقًا إلى حد أنه بدا كطيفٍ خرافيٍّ أمام الزرقة الداكنة للسماء.
كان ينبض بإيقاع رقيق منتظم، وتتدلّى منه لامستان طويلتان خضراوان تتأرجحان ببطء إلى الأمام والخلف.

مرّت هذه الرؤية الرائعة فوق رأسي بلطفٍ ووقارٍ صامت، خفيفةً هشّةً كفقاعة صابون، ثم انجرفت في طريقها المهيب.
وكنت قد أدرت طائرتي نصف دورة لأنظر إلى هذا المخلوق الجميل، حين وجدت نفسي في لحظة وسط أسطول كامل من أمثاله، بأحجام مختلفة، لكن لا شيء منها بحجم الأول، كان بعضها صغيرًا جدًا، أما معظمها فكان بحجم منطاد عادي تقريبًا، وبنفس انحناء القمة تقريبًا، وكان في نسيجها وألوانها رقةٌ تذكّرني بأجود زجاج البندقية.
كانت درجات الوردي والأخضر الفاتحة هي الألوان السائدة، لكنها جميعًا كانت تتوهج بألوان قزحية جميلة حين تتلألأ الشمس عبر أشكالها الرقيقة.

انجرف أمامي بعض المئات منها، سربٌ خرافيّ رائع من سفن غريبة مجهولة من كائنات السماء، كانت أشكالها ومادتها متناغمة مع هذه المرتفعات النقية إلى حد أنه لا يمكن للمرء أن يتخيل شيئًا بهذه الرقة على مرأى أو مسمع من الأرض.
لكنني سرعان ما انتبهت إلى ظاهرة جديدة: ثعابين الهواء العلوي. كانت لفائف طويلة رفيعة عجيبة من مادة شبيهة بالبخار، تدور وتلتوي بسرعة كبيرة، وتطير حول نفسها بسرعة يصعب على العين متابعتها.

كان بعض هذه المخلوقات الشبحية بطول عشرين أو ثلاثين قدمًا، لكن كان يصعب تحديد محيطها، لأن حدودها كانت ضبابية إلى حد أنها تبدو كأنها تتلاشى في الهواء حولها.
كانت هذه الثعابين الهوائية بلون رمادي فاتح جدًا أو لون الدخان، مع خطوط داكنة في الداخل، مما يعطي انطباعًا بكائن حي محدد.

أحدها مرّ بجانب وجهي مباشرة، فشعرت بلمسة باردة لزجة، لكن تركيبها كان غير صلب إلى حد أنني لم أستطع ربطها بأي فكرة عن خطر جسدي، تمامًا مثل المخلوقات الجميلة التي تشبه الأجراس والتي سبقتها.
لم يكن في هياكلها صلابة أكثر من رغوة موجة مكسورة.

لكن كانت هناك تجربة أفظع تنتظرني، هابطة من ارتفاع كبير جاءت رقعة أرجوانية من البخار، بدت صغيرة عندما رأيتها أولًا، لكنها سرعان ما كبرت وهي تقترب مني، حتى بدت مئات الأقدام المربعة في الحجم.
ومع أنها كانت مصنوعة من مادة شفافة تشبه الهلام، إلا أن حدودها كانت أكثر وضوحًا وكثافتها أكثر صلابة من أي شيء رأيته من قبل.

وكانت فيها آثار أكثر وضوحًا لتنظيم جسدي، خاصة لوحتان دائريتان كبيرتان شبيهتان بالظل على كل جانب، ربما كانتا عينين، ونتوء أبيض صلب تمامًا بينهما، منحنٍ وقاسٍ مثل منقار النسر.

كان المظهر العام لهذا الوحش مخيفًا مهددًا، وكان يغيّر لونه باستمرار من بنفسجي فاتح جدًا إلى أرجواني داكن غاضب، كثيف إلى حد أنه كان يلقي ظلًا وهو ينجرف بين طائرتي والشمس.
على الجزء العلوي المنحني من جسده الضخم كانت هناك ثلاثة نتوءات كبيرة لا أستطيع وصفها إلا بفقاعات هائلة، وكنت مقتنعًا وأنا أنظر إليها أنها كانت مشحونة بغاز خفيف جدًا يعمل على رفع هذه الكتلة المشوهة وشبه الصلبة في الهواء المخلخل.

كان المخلوق يتحرك بسرعة، ويواكب الطائرة بسهولة، ولعشرين ميلًا أو أكثر ظل يشكّل حارسي المروع، يحوم فوقي كطائر جارح ينتظر الانقضاض.
وكانت طريقة تقدمه تتم بسرعة كبيرة يصعب متابعتها، هي أن يرمي خيطًا طويلًا دبقًا أمامه، والذي بدا بدوره يسحب بقية الجسد المتلوّي إلى الأمام.
كان مرنًا وهلاميًّا إلى حد أنه لم يبقَ لمدة دقيقتين متتاليتين على الشكل نفسه، ومع ذلك كان كل تغيير يجعله أكثر تهديدًا وبشاعة من سابقه.

عرفت أنه ينوي الأذى.
كل وهج أرجواني من جسده البشع كان يقول لي ذلك.
كانت العيون الغامضة الجاحظة التي تتجه دائمًا نحوي باردةً بلا رحمة في كراهيتها اللزجة.

خفّضت مقدمة طائرتي إلى الأسفل لأهرب منه.
وبينما فعلت ذلك، وبسرعة البرق انطلق لامس طويل من هذه الكتلة الدهنية العائمة، وسقط خفيفًا ملتويًا كطرف سوط عبر مقدمة آلتي.
وكان هناك هسيس عالٍ عندما استقر للحظة على المحرك الساخن، ثم اختفى بسرعة.

وفيما ضمّ الجسد الضخم المسطح نفسه كأنه يشعر بألم مفاجئ، انزلقتُ في هبوط حاد، لكن لامسًا آخر سقط على الطائرة فقطعه المروحان بسهولة كأنه يقطع خيط دخان.
وجاء من الخلف لولب طويل لزج يشبه الأفعى، والتفّ حول وسطي وسحبني خارج جسم الطائرة.
مزّقته، وأصابعي غاصت في سطحه الناعم اللاصق، ونجحت للحظة في تحرير نفسي، لكن لامسًا آخر أمسك بحذائي وجذبني بعنف حتى كدت أسقط على ظهري.

وبينما كنت أسقط أطلقتُ النار من ماسورة بندقيتي، مع أن أي سلاح بشري كان أشبه ببندقية لعبة في مواجهة فيل أمام تلك الكتلة الهائلة.

ومع ذلك صوّبتُ أفضل مما توقعت، فبانفجار عالٍ انفجرت إحدى الفقاعات الكبيرة على ظهر المخلوق بسبب الرصاص.
واتضح أن تخميني كان صحيحًا: تلك الفقاعات الشفافة كانت مملوءة بغاز يرفعه، فانقلب الجسد الضخم كالسحابة فجأة على جانبه وهو يتلوى بعنف ليجد توازنه، بينما كان منقاره الأبيض يفتح ويغلق في غضب مرعب.

لكنني كنت قد انطلقت في أشد انحدار تجرأت عليه، والمحرك ما زال يعمل بكامل قوته، والمروحة والجاذبية يدفعانني إلى الأسفل كأنني نيزك.
ورأيت خلفي بعيدًا بقعة أرجوانية باهتة تصغر بسرعة وتذوب في السماء الزرقاء.
كنت قد نجوت من أدغال الهواء الخارجي القاتلة.

وحين خرجت من الخطر خففت سرعة المحرك، لأنه لا شيء يمزق الآلة أسرع من الطيران بكامل القوة من ارتفاع عالٍ.

وكان هبوطي الانزلاقي الدوّار رائعًا من ارتفاع يقارب الثمانية أميال — أولًا إلى مستوى سحاب الفضة، ثم إلى سحاب العاصفة تحته، وأخيرًا في مطر غزير إلى سطح الأرض.

ورأيت قناة بريستول تحتي حين خرجت من السحاب، لكن كان في خزاني بعض البنزين، فقطعت عشرين ميلًا داخل البر قبل أن أتوقف في حقل على بعد نصف ميل من قرية آشكومب.

هناك حصلت على ثلاث عبوات بنزين من سيارة عابرة، وفي السادسة وعشر دقائق مساءً هبطت بهدوء في مرج بيتي في ديفايز، بعد رحلة لم يقم بمثلها إنسان على الأرض ويعيش ليحكيها.

لقد رأيت الجمال ورأيت الرعب في المرتفعات — ولا يوجد جمال أعظم ولا رعب أشد مما رأيت في حدود معرفة الإنسان.

والآن خطتي أن أذهب مرة أخرى قبل أن أعلن نتائجي للعالم.
السبب أنني يجب أن أملك دليلًا أقدمه قبل أن أروي مثل هذه القصة لبني البشر، صحيح أن آخرين سيلحقون بي قريبًا ويؤكدون ما قلته، لكنني أريد أن أكون مقنعًا من البداية.

تلك الفقاعات الجميلة المتلألئة في الهواء لن يكون صعبًا الإمساك بها.
فهي تنجرف ببطء، والطائرة السريعة تستطيع اعتراض مسارها الهادئ.
ومن المحتمل جدًا أن تذوب في الطبقات الأثقل من الجو، وأن كل ما سأجلبه معي إلى الأرض هو كومة صغيرة من الهلام.

ومع ذلك سيكون هناك شيء أستند إليه لأثبت قصتي.
نعم، سأذهب، حتى لو تحملت خطرًا بذلك، هذه الأهوال الأرجوانية لا تبدو كثيرة العدد، ومن المحتمل ألا أرى واحدًا منها، وإن رأيت واحدًا فسأنزل عليه فورًا، وفي أسوأ الأحوال لديّ البندقية ومعرفتي بـ...

هنا تُفقد صفحة من المخطوطة للأسف. وعلى الصفحة التالية مكتوب بخط كبير غير منتظم:

«ثلاثة وأربعون ألف قدم.
لن أرى الأرض مرة أخرى.
إنهم تحتي، ثلاثة منهم.
يا الله أعنّي؛ إنها موتة مروعة!»

وهذا هو كل «بيان جويس-أرمسترونغ».

ومنذ ذلك الحين لم يُرَ الرجل، وقد عُثر على قطع من طائرته المحطمة في أراضي السيد باد-لوشينغتون على حدود كنت وساسكس، على بعد أميال قليلة من المكان الذي اكتُشف فيه دفتر الملاحظات.

وإذا كانت نظرية الطيار المسكين صحيحة، وأن هذه «أدغال الهواء» كما سماها لم تكن موجودة إلا فوق جنوب غرب إنجلترا، فيبدو أنه هرب منها بأقصى سرعة طائرته، لكن تلك المخلوقات الرهيبة لحقت به والتهمته في مكان ما من الهواء الخارجي فوق المكان الذي وُجدت فيه تلك البقايا الكئيبة.

وصورة تلك الطائرة وهي تنزلق في السماء، والأهوال التي لا اسم لها تطير بسرعة تحتها وتفصله دائمًا عن الأرض بينما تضيق عليه شيئًا فشيئًا، هي صورة يفضّل من يحافظ على عقله ألا يتوقف عندها طويلًا.
وأنا أعلم أن كثيرين ما زالوا يسخرون من الحقائق التي سجلتها هنا، لكن حتى هم لا بد أن يعترفوا بأن جويس-أرمسترونغ قد اختفى.

وأود أن أذكّرهم بكلماته هو:

«قد يشرح دفتر الملاحظات هذا ما أحاول فعله، وكيف فقدت حياتي في سبيل ذلك.
لكن لا كلام فارغ عن الحوادث أو الألغاز، أرجوكم.»

المربية العجوز

إليزابيث جاكسل



تعلمان يا صغيرتَيّ أن أمكما كانت يتيمة، وكانت الابنة الوحيدة لوالديها. ولعلّكما سمعتما أن جدّكما كان رجل دين في مقاطعة ويستمورلاند، وهي البلاد التي جئتُ منها.
كنتُ يومذاك فتاةً صغيرة في مدرسة القرية، حين دخلت جدّتكما ذات صباح لتسأل المعلّمة إن كانت في المدرسة تلميذة تصلح لتكون مربيةً لطفل.

ولا أخفيكما أنني شعرت بالفخر حين نادتني المعلّمة، وأثنت على مهارتي في الحياكة، ووصفتني بالفتاة الرزينة الأمينة، وقالت إن أبويّ، على فقرهما، ذوا سمعة طيبة للغاية.
تمنيتُ ساعتها ألا يكون لي في الحياة مطلبٌ إلا خدمة تلك السيدة الشابة الجميلة، التي كانت وجنتاها تحمرّان خجلًا — كما احمرّت وجنتاي — وهي تتحدث عن المولود المنتظر وعن المهام التي سأقوم بها لرعايته.

غير أنني أرى أنكما لا تهتمان كثيرًا بهذه التفاصيل، وتتوقان إلى معرفة ما جرى بعد ذلك، فسأخبركما بالأمر مباشرة: لقد التحقتُ بالعمل، واستقررتُ في بيت رجل الدين قبل ولادة الآنسة روزاموند، تلك المولودة التي صارت اليوم أمكما.

في بداياتها لم تكن لي مهام كثيرة معها؛ فقد كانت دائمًا في ذراعي أمها، وتنام إلى جوارها طول الليل، وكنتُ أشعر بزهوٍ كبير في المرات القليلة التي كانت سيدتي تأتمنني فيها عليها.
لم أرَ قط طفلةً مثلها — وإن كان كلٌّ منكما طفلًا رائعًا في وقته — لكن في رقّتها وجاذبيتها الفطرية لم يبلغ أيٌّ منكما ما بلغته أمكما.

لقد ورثت ذلك عن أمها، التي كانت سيدةً من طبقة رفيعة؛ فهي الآنسة فيرنيفال، حفيدة اللورد فيرنيفال من مقاطعة نورثمبرلاند.
وعلى حد علمي، لم يكن لها إخوة ولا أخوات، وقد نشأت في كنف عائلة اللورد حتى تزوجت جدّكما، وكان حينذاك قسًّا مساعدًا، ابنًا لأحد أصحاب المتاجر في كارلايل، لكنه كان رجلًا ذكيًا للغاية.

كان رجلًا نبيلًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، يعمل بجدٍّ وإخلاص في رعيّته الواسعة التي كانت تمتد عبر تلال ويستمورلاند.
وحين كانت والدة الآنسة الصغيرة روزاموند في الرابعة أو الخامسة من عمرها، توفي والداها كلاهما في غضون أسبوعين، الواحد تلو الآخر.

آه! لقد كان وقتًا عصيبًا موجعًا.
كنتُ أنا وسيدتي الشابة الجميلة ننتظر قدوم مولودٍ آخر، حين عاد سيدي من إحدى جولاته الطويلة مبللًا منهكًا، فأصابته الحمّى التي أودت بحياته.
أما سيدتي فلم تستعد عافيتها قط، وعاشت فقط لتشهد وفاة مولودها، وطلبت أن يوضع الطفل على صدرها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.
وكانت قد أوصتني، وهي على فراش الموت، ألا أترك الآنسة روزاموند أبدًا؛ ولو أنها لم تنطق بكلمة، لرافقتُ الطفلة الصغيرة إلى أقاصي الأرض.

وبعد ذلك — وقبل أن تجف دموعنا أو تهدأ نوبات بكائنا — حضر الأوصياء والمسؤولون عن التركة لتسوية الأمور.
كان من بينهم قريب سيدتي الشابة، اللورد فيرنيفال، والسيد إستوايت، شقيق سيدي، الذي كان يعمل تاجرًا في مانشستر.

لم يكن وضعه المادي آنذاك ميسورًا كما أصبح عليه لاحقًا، وكان يعول عائلة كبيرة.
لا أدري إن كان القرار قد اتُّخذ بناءً على ترتيباتهم، أم بسبب رسالة كتبتها سيدتي وهي على فراش الموت إلى قريبها اللورد، لكن الأمر استقر في النهاية على أن ننتقل، أنا والآنسة روزاموند، إلى قصر فيرنيفال في مقاطعة نورثمبرلاند.

وقد تحدث اللورد وكأن رغبة والدتها كانت أن تعيش الطفلة في كنف عائلته، مؤكدًا أنه لا يرى في ذلك أي مانع، فوجود فرد أو فردين إضافيين لن يُحدث فارقًا في بيت فخم كهذا.

ومع أنني لم أكن أرغب في أن يُنظر إلى قدوم صغيرتي الجميلة المشرقة — التي كانت أشبه بشعاع شمس يضيء أي بيت، مهما علا شأنه — على ذلك النحو، فقد غمرتني سعادة كبيرة حين رأيت أهل الوادي يحدّقون بإعجاب، بعد أن علموا أنني سأعمل وصيفةً للآنسة الصغيرة لدى عائلة فيرنيفال في قصر فيرنيفال مانور.

لكنني أخطأت حين ظننت أننا سنقيم في المكان الذي يعيش فيه اللورد؛ فقد تبين أن العائلة قد غادرت قصر فيرنيفال مانور منذ خمسين عامًا أو أكثر.
ولم أسمع قط أن سيدتي الشابة المسكينة قد زارت ذلك المكان، رغم أنها نشأت في كنف العائلة؛ وهو أمر أحزنني، إذ كنت أتمنى لو أن الآنسة روزاموند قضت سنوات صباها في المكان ذاته الذي عاشت فيه والدتها في صغرها.

أخبرني خادم اللورد الخاص — وقد وجهت إليه من الأسئلة قدر ما سمحت به جرأتي — أن القصر يقع عند سفح تلال كمبرلاند، وأنه مكان فخم للغاية. وتعيش فيه الآن الآنسة فيرنيفال المسنّة، وهي عمة كبرى للورد، ومعها عدد قليل من الخدم.
وقد رأى اللورد أن هذا المكان سيكون ملائمًا جدًا للآنسة روزاموند لبضع سنوات، كما أن وجودها فيه قد يبعث بعض البهجة في حياة عمته المسنّة.

أمرني سيدي أن أكون قد فرغتُ من إعداد أشياء الآنسة روزاموند قبل يومٍ معيّن.
وكان رجلًا صارمًا متكبّرًا، كما كان يُقال عن جميع لوردات آل فيرنيفال، لا يتفوّه بكلمة تزيد على قدر الحاجة.
وكان الناس يقولون إنه أحبّ سيدتي الصغيرة، لكنها، إذ علمت أن والده سيعترض، لم تصغِ إليه وتزوّجت السيد إيثويت.
أما أنا فلا أعلم حقيقة ذلك.
وعلى أي حال، لم يتزوّج قط.

ولم يُبدِ بالآنسة روزاموند اهتمامًا كبيرًا، وهو ما كنت أظن أنه سيفعله لو كان يحفظ لأمها الراحلة قدرًا من الودّ.
أرسل خادمه معنا إلى قصر المانور، وأمره أن يلحق به في نيوكاسل في مساء ذلك اليوم نفسه؛ فلم يبق لنا وقت طويل حتى نألف الغرباء قبل أن يتركنا، نحن الاثنتين، شابتين وحيدتين — وكنت يومها في الثامنة عشرة — في ذلك البيت الكبير العتيق.

يبدو الأمر وكأنه حدث بالأمس حين وصلنا إلى هناك. كنّا قد غادرنا بيت القسيس العزيز علينا في وقت مبكّر جدًا، وبكينا كأن قلوبنا ستنفطر، رغم أننا كنّا نسافر في عربة سيدي التي كنت أعدّها شيئًا عظيمًا في الماضي.
وكان الوقت قد تجاوز الظهيرة في يوم من سبتمبر حين توقفنا لتغيير الخيول للمرة الأخيرة في بلدة صغيرة مليئة بالدخان وعمّال المناجم.
وكانت الآنسة روزاموند قد غفت، لكن السيد هنري أمرني أن أوقظها لترى الحديقة وقصر المانور ونحن ندخل.
رأيت أن ذلك مؤسف قليلًا، لكنني فعلت ما قاله خوفًا من أن يشكوني إلى سيدي.

تركنا وراءنا كل أثر لبلدة أو قرية، ودخلنا بوابات حديقة واسعة شبه بريّة، ليست كالحدائق هنا في الجنوب، بل تكثر فيها الصخور، ويُسمع فيها خرير المياه الجارية، وتنتشر فيها أشجار الزعرور الملتوية، والبلوط العتيق الأبيض المتقشّر.
امتدّ الطريق قرابة ميلين، ثم ظهر لنا قصر عظيم مهيب، تحيط به الأشجار حتى إن أغصانها كانت تضرب الجدران حين تهب الرياح، وبعضها مكسور لأن أحدًا لم يعتنِ بالمكان؛ فلم تُقلَّم الأشجار، ولم يُصلح الطريق المكسوّ بالطحلب.
وحدها الواجهة الأمامية كانت نظيفة، والدائرة البيضاوية أمام البيت بلا عشب، ولا شجرة أو متسلّق يغطي النوافذ الطويلة الكثيرة، وعلى جانبيها جناحان بارزان.
وكان البيت، رغم هجرانه، أبهى مما توقعت.

خلفه ارتفعت التلال الجرداء، وعلى يساره حديقة زهور صغيرة قديمة الطراز، كما عرفت لاحقًا، يفتح عليها باب من الواجهة الغربية.
كانت قد نُحتت من الغابة الكثيفة لسيّدة عجوز من آل فيرنيفال، لكن الأشجار عادت لتظللها، فلم يبقَ فيها إلا قليل من الزهور.

حين وصلنا إلى المدخل الكبير ودخلنا القاعة، شعرت أننا سنضيع، فهي واسعة عظيمة مهيبة.
كان يتدلّى من السقف ثريّا برونزية، لم أرَ مثلها من قبل، فبقيت أنظر إليها في دهشة.
وفي أحد أطراف القاعة موقد ضخم بحجم جدار بيت كامل في قريتي، وبجانبه أرائك ثقيلة قديمة.

وفي الطرف الآخر، على الجدار الغربي، كان هناك أورغن ضخم مثبّت في الحائط يملأ معظم ذلك الجانب.
وإلى جواره باب، وعلى جانبي الموقد أبواب أخرى لم أدخلها قط طوال بقائي في البيت.

كان النهار يوشك أن ينقضي، والقاعة بلا نار، فبدت مظلمة كئيبة، لكننا لم نمكث فيها طويلًا.
انحنى لنا الخادم العجوز الذي فتح الباب، ثم أخذنا عبر ممرات وقاعات صغيرة إلى غرفة الاستقبال الغربية، حيث كانت الآنسة فيرنيفال جالسة.
أمسكت الآنسة روزاموند الصغيرة بيدي بقوة كأنها خائفة ضائعة في ذلك المكان العظيم، ولم أكن أنا أفضل حالًا.

كانت غرفة الاستقبال الغربية مشرقة دافئة، فيها نار مشتعلة وأثاث مريح.
أما الآنسة فيرنيفال فكانت سيدة عجوزًا تقارب الثمانين، طويلة نحيلة، وجهها مليء بالتجاعيد الدقيقة كأنها رُسمت بإبرة.
وكانت عيناها يقظتين تعوّضان صممها الشديد الذي اضطرها إلى استخدام بوق السمع.
كانت تجلس معها السيدة ستارك، خادمتها ورفيقتها، تعملان معًا في قطعة تطريز كبيرة.

وكانت ستارك تقريبًا في مثل عمرها، وقد عاشت معها منذ شبابهما، حتى صارت أشبه بصديقة لا خادمة. لكنها بدت باردة، رمادية، حجرية، كأنها لم تحبّ أو تهتمّ بأحد قط، ولا أظنها كانت تهتمّ إلا بسيدتها. وبسبب صمم الأخيرة، كانت ستارك تعاملها كما لو كانت طفلة.
سلّم السيد هنري رسالة من سيدي، ثم انحنى مودّعًا، وتركنا جميعًا بلا كلمة إضافية.
ولم يلتفت إلى يد صغيرتي روزاموند الممدودة، وتركنا واقفتين هناك تحت نظرات السيدتين العجوزتين من وراء نظاراتهما.

سرّني أنهما دقّتا الجرس لاستدعاء الخادم العجوز الذي كان قد أدخلنا من قبل، وأمرتاه أن يأخذنا إلى غرفنا.
فخرجنا من غرفة الاستقبال الكبرى إلى غرفة جلوس أخرى، ومنها إلى درج عظيم، ثم إلى رواق واسع أشبه بمكتبة: على أحد جانبيه كتب، وعلى الجانب الآخر نوافذ ومكاتب للكتابة، حتى وصلنا إلى غرفنا.
ولم أجد في ذلك ما يؤسفني حين سمعت أنها تقع فوق المطابخ مباشرة، إذ بدأت أظن أنني سأضيع في متاهة ذلك البيت.

كانت هناك حضانة قديمة، استعملها صغار اللوردات والسيدات منذ زمن بعيد، وفيها نار لطيفة مشتعلة في الموقد، وغلاية تغلي على الحديدة، وأدوات الشاي موضوعة على الطاولة.
ومن تلك الغرفة كانت هناك حضانة ليلية، فيها سرير صغير لروزاموند بجوار سريري.

فنادى جيمس العجوز زوجته دوروثي لترحب بنا؛ وكانا معًا في غاية اللطف والكرم، حتى شعرنا أنا وروزاموند بالراحة، وعند حلول وقت الشاي كانت الصغيرة تجلس على ركبة دوروثي وتثرثر بلسانها الصغير السريع.

سرعان ما اكتشفت أن دوروثي من وستمورلاند، وكان ذلك مما قرّب بيننا، ولم أكن لأتمنى لقاء أناس أطيب من جيمس وزوجته.
كان جيمس قد عاش معظم حياته في خدمة أسرة اللورد، وكان يظن أنه لا أحد أعظم منهم.
بل كان ينظر قليلًا باستعلاء إلى زوجته، لأنها قبل زواجها لم تعش إلا في بيت مزارع، لكنه كان شديد المحبة لها.

وكان لديهما خادمة واحدة تقوم بالأعمال الشاقة، اسمها أغنيس.
وهكذا تكوّنت الأسرة من: أنا، وأغنيس، وجيمس، ودوروثي، ومعنا الآنسة فيرنيفال والسيدة ستارك، وطبعًا صغيرتي روزاموند.
وكنت أتساءل كيف كانوا يعيشون قبل مجيئها، فقد صاروا جميعًا يهتمون بها اهتمامًا كبيرًا.

وكنت أتساءل كيف كانوا يعيشون قبل مجيئها، فقد صاروا جميعًا يهتمون بها اهتمامًا كبيرًا.
في المطبخ وغرفة الاستقبال على حد سواء، كانت روزاموند تدخل كالعصفور، تلعب وتمرح، بثرثرة وضحكات لا تنقطع، حتى إن الآنسة فيرنيفال القاسية والسيدة ستارك الباردة كانتا تبدوان مسرورتين بوجودها، رغم كبريائهما الذي يمنعهما من أن تطلبا بقاءها.

كان البيت الكبير المترامي الأطراف مكانًا رائعًا لروزاموند الصغيرة، فقد كانت تقوم بجولات في أرجائه وأنا خلفها، إلا الجناح الشرقي المغلق الذي لم نفكر يومًا في دخوله.
أما في الأجزاء الغربية والشمالية فكانت هناك غرف كثيرة مليئة بأشياء غريبة بالنسبة لنا: جرار صينية قديمة، وصناديق عاج منحوتة، وكتب ضخمة، وفوق كل ذلك اللوحات القديمة!

أذكر أن صغيرتي طلبت من دوروثي أن ترافقنا لتخبرنا عن أصحاب تلك الصور، إذ كانت كلها بورتريهات لأفراد أسرة اللورد، وإن لم تعرف دوروثي أسماءهم جميعًا.
حتى وصلنا إلى غرفة الاستقبال الرسمية القديمة فوق القاعة، وهناك كانت صورة الآنسة فيرنيفال، أو «غريس» كما كانت تُسمى حينها، لأنها كانت الأخت الصغرى.
يا لجمالها! لكن بملامح متكبرة، ونظرة احتقار في عينيها الجميلتين، وحاجبين مرفوعين قليلًا كأنها تتعجب من جرأة أحد أن ينظر إليها، وشفاهها متجهمة وهي تحدّق بنا.

كانت ترتدي ثوبًا لم أرَ مثله من قبل، لكنه كان على الموضة في شبابها: قبعة من قماش أبيض ناعم كالبيفر، مائلة قليلًا على حاجبيها، وريشة جميلة تنسدل على جانبها، وفستان من الساتان الأزرق مفتوح من الأمام ليُظهر صدرًا أبيض منسوجًا.

قلت في نفسي: «حقًا! إنهم يقولون إن الجسد كالعشب يذبل، لكن من كان يظن أن الآنسة فيرنيفال كانت جمالًا صارخًا إذا نظرنا إليها الآن؟»

فقالت دوروثي: «نعم، الناس يتغيرون كثيرًا. لكن إن كان ما يقوله والد سيدي صحيحًا، فإن الآنسة فيرنيفال الكبرى كانت أجمل من غريس. صورتها هنا في مكان ما، لكن إن أريتك إياها، يجب ألا تبوحي بذلك، حتى لجيمس. هل تستطيع الصغيرة أن تكتم السر؟»

لم أكن واثقة، فهي طفلة صغيرة جريئة صريحة، فطلبت منها أن تختبئ، ثم ساعدت دوروثي على قلب لوحة كبيرة كانت مسنودة إلى الجدار ووجهها إلى الداخل، ولم تكن معلّقة كما البقية.
حقًا، لقد فاقت صورةُ الأخت الكبرى صورةَ الآنسة غريس جمالًا، بل خُيّل إليّ أنها تزيد عليها كبرياءً واحتقارًا أيضًا، وإن كان من العسير أن أفضل بينهما.

كان في وسعي أن أبقى محدّقة فيها ساعةً كاملة، غير أن دوروثي بدت شبه خائفة لأنها أرتني إياها، فأعادتها مسرعةً إلى موضعها، ثم أمرتني أن أذهب للبحث عن روزاموند الصغيرة، وقالت إن في البيت أماكنَ قبيحة لا تحب أن تقترب منها الطفلة.

وكنت فتاةً جسورةً مفعمةً بالحياة، فلم أُلقِ إلى كلام العجوز بالًا، إذ كنت أحب لعبة الاختباء كما يحبها كل طفل في الرعية، فانطلقتُ أبحث عن صغيرتي.

ومع اقتراب الشتاء وقِصر الأيام، كنت أحيانًا أكاد أجزم أنني أسمع صوتًا كأن أحدهم يعزف على الأرغن الكبير في القاعة.
لم أسمعه كل مساء، لكنني كثيرًا ما سمعته، لا سيما حين أجلس مع روزاموند بعد أن أضعها في سريرها، وأبقى ساكنةً صامتة في غرفة النوم.
عندها كان الصوت يتعالى ويتمدّد في البعيد.

وفي الليلة الأولى، حين نزلتُ لتناول عشائي، سألت دوروثي من الذي كان يعزف، فقال جيمس بحدة إنني حمقاء إذ أظن أن صفير الرياح بين الأشجار موسيقى.
لكنني رأيت دوروثي تنظر إليه بخوف، وسمعت أغنيس خادمة المطبخ تتمتم بشيء وتصبح شاحبة.
أدركت أنهم لم يستسيغوا سؤالي، فسكتُ حتى صرتُ وحدي مع دوروثي، حيث كنت أعلم أنني سأستطيع أن أستخرج منها شيئًا.

في اليوم التالي، اخترتُ وقتي وسألتها بلطف من الذي يعزف على الأرغن، إذ كنت أعلم أنه الأرغن وليس الريح، رغم أنني تظاهرت بالصمت أمام جيمس.
لكن دوروثي كانت قد تلقّت درسها، ولم أستطع أن أستخرج منها كلمة واحدة.
فجرّبت أغنيس، رغم أنني كنت أتعالى عليها قليلًا، فهي ليست إلا خادمة عند جيمس ودوروثي.

فقالت لي إن عليّ ألا أبوح بذلك أبدًا، وإن فعلت فلا أذكر أنها هي من أخبرتني، لكنها قالت إنه صوت غريب، وقد سمعته كثيرًا، خاصة في ليالي الشتاء وقبل العواصف.
ويقول الناس إنه اللورد القديم يعزف على الأرغن الكبير في القاعة، كما كان يفعل في حياته.

لكن من هو ذلك اللورد، ولماذا يعزف، ولماذا في ليالي الشتاء العاصفة تحديدًا، لم تستطع أو لم تشأ أن تخبرني.

حسنًا! قلت لكم إنني أملك قلبًا شجاعًا، وظننت أنه من الممتع أن يكون هناك موسيقى عظيمة تتردّد في البيت، أيًا كان العازف؛ فقد كانت ترتفع فوق عصف الرياح، وتنوح وتنتصر ككائن حي، ثم تهبط إلى رقة كاملة؛ لكنها دائمًا موسيقى وألحان، فلا معنى أن تُسمى ريحًا.

في البداية ظننت أن الآنسة فيرنيفال تعزف خفيةً عن أغنيس؛ لكن في يوم كنت وحدي في القاعة، فتحت الأرغن وتفحّصته كما فعلت مرة في كنيسة كروثويت، فرأيت أنه محطم من الداخل، رغم مظهره البهي من الخارج.

عندها، رغم أن الوقت كان منتصف النهار، شعرت بقشعريرة في جسدي، فأغلقته بسرعة، وعدت مسرعة إلى الحضانة المضيئة، ولم أعد أحب سماع تلك الموسيقى لبعض الوقت، مثلما لم يحبها جيمس ودوروثي.

وخلال ذلك كله، كانت روزاموند الصغيرة تزداد محبةً في قلوب الجميع. أحبّت السيدتان العجوزتان أن تتناول روزاموند معهما غداءهما المبكر، وكان جيمس يقف وراء كرسي الآنسة فيرنيفال، وأنا وراء كرسي روزاموند بكل وقار.
وبعد الطعام، كانت تلعب في زاوية غرفة الاستقبال الكبرى بهدوء كالفأر، بينما تنام الآنسة فيرنيفال، وأتناول أنا عشائي في المطبخ.

لكنها كانت سعيدة بالعودة إليّ في الحضانة بعد ذلك، إذ كانت تقول إن الآنسة فيرنيفال حزينة جدًا، والسيدة ستارك مملة جدًا؛ أما نحن فكنا مرحين بما يكفي.
ومع الوقت، لم أعد أبالي بتلك الموسيقى الغريبة المترددة، فهي لا تؤذي أحدًا ما دمنا لا نعرف مصدرها.

كان ذلك الشتاء شديد البرودة. في منتصف أكتوبر بدأ الصقيع واستمر أسابيع طويلة. أذكر أنه في أحد الأيام على الغداء، رفعت الآنسة فيرنيفال عينيها الحزينتين المثقلتين وقالت للسيدة ستارك: «أخشى أن يكون شتاءً رهيبًا»، بطريقة ذات معنى غامض.

لكن السيدة ستارك تظاهرت أنها لم تسمع، وبدأت تتحدث بصوت عالٍ عن أمر آخر. أما صغيرتي وأنا فلم نهتم بالصقيع؛ ما دمنا في جو جاف، كنا نصعد المنحدرات خلف البيت، ونركض في الهواء البارد النقي، ونعود أحيانًا عبر طريق جديد يمر بجوار شجرتي هولي عتيقتين ملتويتين في منتصف الجانب الشرقي من البيت.

لكن الأيام كانت تقصر أكثر فأكثر، واللورد القديم، إن كان هو، كان يعزف أكثر فأكثر، بعزف عاصف وحزين على الأرغن الكبير.

في أحد أيام الأحد بعد الظهر، ولا بد أنه كان في أواخر نوفمبر، طلبت من دوروثي أن تعتني بالصغيرة حين تخرج من غرفة الاستقبال بعد أن تنام الآنسة فيرنيفال، إذ كان الجو شديد البرودة لأخذها معي إلى الكنيسة، وكنت أرغب في الذهاب.

وكانت دوروثي سعيدة بالوعد، فهي تحب الطفلة كثيرًا، فاطمأن قلبي، وانطلقت أنا وأغنيس نشيطتين، رغم أن السماء كانت سوداء ثقيلة فوق الأرض البيضاء، كأن الليل لم يرحل تمامًا، والهواء، رغم سكونه، كان لاذعًا قاسيًا.

قالت لي أغنيس: «سيَهطل الثلج».
وبالفعل، بينما كنّا في الكنيسة، بدأ الثلج يتساقط كثيفًا، في رقائق كبيرة، حتى كاد يحجب النوافذ ويُعتم ضوء النهار.

وحين خرجنا كان قد توقّف، لكنه تراكم ناعمًا كثيفًا عميقًا تحت أقدامنا ونحن عائدتان إلى البيت.

وقبل أن نصل إلى القاعة ارتفع القمر، وخُيّل إليّ أن الضوء صار أشدّ مما كان عليه حين ذهبنا إلى الكنيسة بين الثانية والثالثة بعد الظهر، بفضل القمر والثلج الأبيض الساطع.

لم أكن قد أخبرتكما أن الآنسة فيرنيفال والسيدة ستارك لم تذهبا قط إلى الكنيسة؛ كانتا تقرآن الصلوات معًا بطريقتهما الهادئة الكئيبة، وكان يوم الأحد يبدو طويلًا جدًا عليهما بلا عمل التطريز.

لذلك حين نزلتُ إلى دوروثي في المطبخ لأصطحب روزاموند الصغيرة معي إلى الأعلى، لم أتعجّب حين أخبرتني أن السيدتين أبقَتا الطفلة معهما، وأنها لم تأتِ إلى المطبخ كما اعتدنا أن أخفيها هناك حين تملّ من التصرّف بأدب في غرفة الاستقبال.

خلعتُ ثيابي الخارجية المبلّلة، ثم مضيتُ أبحث عنها لأحملها إلى عشائها في الحضانة. لكن حين دخلتُ غرفة الاستقبال الكبرى، وجدتُ السيدتين العجوزتين جالستين في سكون، تتبادلان كلمة بين حين وآخر، لكنهما بدتا كأن شيئًا مشرقًا مرحًا مثل روزاموند لم يقترب منهما قط.

ظننت أنها تختبئ مني، فهي من عادتها الجميلة أن تفعل ذلك، وأنها أقنعتهما أن يتظاهرا بعدم معرفتها، فبدأتُ أبحث تحت الأرائك وخلف الكراسي، متظاهرةً أنني خائفة لعدم العثور عليها.

قالت السيدة ستارك بحدة: «ما الأمر يا هيستر؟» لا أدري إن كانت الآنسة فيرنيفال قد رأتني، فهي كما أخبرتكما صمّاء جدًا، وكانت جالسة تحدّق في النار بوجه يائس.

قلت: «إنني أبحث فقط عن صغيرتي روزي-بوزي، وما زلت أظن أنها هناك قريبة مني، رغم أنني لم أرها».

قالت السيدة ستارك: «روزاموند ليست هنا. لقد خرجت منذ أكثر من ساعة لتبحث عن دوروثي». ثم عادت تحدّق في النار.
شعرتُ كأن قلبي يهوي في صدري، وبدأتُ ألوم نفسي على أنني تركتُ صغيرتي.

عدتُ إلى دوروثي وأخبرتها، وكان جيمس قد خرج في ذلك اليوم، لكننا أنا وهي وأغنيس أخذنا مصابيح وبدأنا البحث أولًا في الحضانة، ثم جُبنا البيت الكبير كله، نناديها ونترجاها أن تخرج من مخبئها وألا تفزعنا هكذا.
لكن لم يكن هناك جواب، ولا صوت.
قلت أخيرًا: «أيمكن أن تكون دخلت الجناح الشرقي واختبأت هناك؟»

لكن دوروثي قالت إن ذلك غير ممكن، فهي نفسها لم تدخل هناك قط؛ فالأبواب دائمًا مغلقة، والمفتاح مع وكيل اللورد، على ما تعتقد، ولم ترَ هي ولا جيمس تلك المفاتيح قط.
فقلت إنني سأعود لأرى إن كانت مختبئة في غرفة الاستقبال رغم كل شيء، وإن وجدتها هناك سأعاقبها على الخوف الذي سبّبته لي، لكنني لم أكن أنوي ذلك حقًا.

عدتُ إلى غرفة الاستقبال الغربية، وأخبرتُ السيدة ستارك أننا لم نجدها في أي مكان، وطلبتُ الإذن بالبحث بين الأثاث، فقد ظننت أنها ربما غفت في زاوية دافئة مخفية.
لكن لا! بحثنا، وحتى الآنسة فيرنيفال نهضت ترتجف وتبحث، ولم تكن هناك.
ثم خرجنا جميعًا نعيد البحث في كل مكان، لكننا لم نعثر عليها.

ارتجفت الآنسة فيرنيفال بشدة حتى أخذتها السيدة ستارك إلى غرفة الاستقبال الدافئة، لكنهما جعلاني أعِدُهما أن أحضرها إليهما حين أجدها.
آه! بدأتُ أظن أنها لن تُعثر عليها أبدًا، حتى خطر لي أن أنظر إلى الساحة الأمامية الكبيرة، وكانت مغطاة بالثلج.
كنتُ في الطابق العلوي حين نظرت، لكن ضوء القمر كان ساطعًا جدًا، فرأيتُ بوضوح آثار قدمين صغيرتين تبدأ من باب القاعة وتدور حول زاوية الجناح الشرقي.
لا أدري كيف نزلت، لكنني فتحت الباب الكبير الثقيل، وغطّيتُ رأسي بطرف ثوبي كأنه معطف، وخرجت مسرعة.

انعطفتُ حول الزاوية الشرقية، وكان هناك ظل أسود على الثلج، لكن حين عدتُ إلى ضوء القمر، كانت آثار الأقدام الصغيرة تتجه صعودًا نحو التلال.
كان الجو قارصًا، حتى إن الهواء كاد يسلب جلدي وأنا أجري، لكنني واصلتُ الركض أبكي وأنا أفكر كيف أن صغيرتي المسكينة لا بد أنها تجمّدت وخافت.

كنتُ على مقربة من أشجار الهولي حين رأيت راعيًا ينزل من التل يحمل شيئًا بين ذراعيه ملفوفًا بمعطفه.
صاح بي وسأل إن كنت قد فقدت طفلة؛ وحين لم أستطع الكلام من شدة البكاء، اقترب مني، ورأيتُ صغيرتي الحبيبة ساكنة، بيضاء، متيبسة بين ذراعيه، كأنها ميتة.
أخبرني أنه كان قد صعد إلى التلال ليجمع أغنامه قبل أن يشتد برد الليل، وأنه وجدها تحت أشجار الهولي — بقع سوداء على جانب التل، حيث لا تنمو أي شجرة أخرى لأميال حولها — لقد وجد راعي الغنم صغيرتي، حَمَلَتي، ملكتي، حبيبتي، جامدةً باردةً في نومٍ رهيبٍ أنجبه الصقيع.

آه، ما أعظم الفرح وما أكثر الدموع حين عادت إلى حضني من جديد! فلم أسمح للراعي أن يحملها، بل أخذتُها أنا، ملفوفةً بمعطفه، بين ذراعيَّ، وضمَمتُها إلى عنقي وقلبي الدافئ، حتى شعرتُ بالحياة تتسلّل ببطءٍ إلى أطرافها الصغيرة الرقيقة. لكنها كانت لا تزال فاقدة الوعي حين وصلنا إلى القاعة، ولم يكن لديّ نفسٌ للكلام.

دخلنا من باب المطبخ.
قلت: «أحضري صحن التدفئة».
ثم حملتُها إلى الأعلى، وبدأتُ أنزع ثيابها أمام نار الحضانة التي كانت أغنيس قد أبقَتْها متّقدة.
كنتُ أناديها بأحلى الأسماء وألطفها، حتى وأنا أبكي، وأخيرًا، آه أخيرًا، فتحت عينيها الزرقاوين الكبيرتين.

وضعتُها في سريرها الدافئ، وأرسلتُ دوروثي لتخبر الآنسة فيرنيفال أن كل شيء بخير؛ وعزمتُ أن أبقى بجوارها طوال الليل.
غفت سريعًا حين لامس رأسها الوسادة، وظللتُ أراقبها حتى نور الصباح، حين استيقظت مشرقةً صافيةً، أو هكذا بدت لي، وهكذا أظن الآن.

قالت إنها رغبت في الذهاب إلى دوروثي، لأن السيدتين العجوزتين كانتا نائمتين، وغرفة الاستقبال كانت مملةً جدًا.
وإنها حين مرّت بالردهة الغربية رأت الثلج يتساقط من النافذة العالية، ناعمًا ثابتًا، لكنها أرادت أن تراه ممدودًا أبيضَ جميلًا على الأرض؛ فدخلت القاعة الكبرى، ورأت الثلج يكسو الطريق ناعمًا ساطعًا.

وبينما كانت واقفة هناك، رأت فتاةً صغيرة، أصغر منها، «لكنها جميلة جدًا»، قالت صغيرتي، «وأشارت لي أن أخرج إليها؛ وكانت جميلةً ورقيقةً جدًا، فلم أستطع إلا أن أذهب».
ثم أخذت تلك الفتاة الصغيرة بيدها، وسارتا معًا حول زاوية الجناح الشرقي.

قلت لها بصرامة: «أنتِ فتاة شقية وتختلقين القصص.
ماذا كانت ستقول أمكِ الطيبة، التي في السماء، والتي لم تكذب يومًا، لو سمعت صغيرتها روزاموند تروي قصصًا؟»

بكت وقالت: «حقًا يا هيستر، أنا أقول الصدق، حقًا أقول».

قلت: «لا تقولي هذا.
لقد تتبعتُ آثار قدميكِ في الثلج؛ لم يكن هناك إلا آثاركِ وحدكِ، ولو كانت هناك فتاة أخرى تمسك بيدكِ، أما كنتِ ترين آثار قدميها بجانبكِ؟»

قالت وهي تبكي: «لا أستطيع أن أفسّر ذلك يا هيستر العزيزة، لم أنظر إلى قدميها، لكنها أمسكت يدي بقوة، وكانت يدها باردة جدًا.
أخذتني إلى طريق التل، حتى أشجار الهولي؛ وهناك رأيت سيدةً تبكي، لكنها حين رأتني سكتت عن بكائها، وابتسمت بفخرٍ وعظمة، وأجلستني على ركبتها، وبدأت تهدهدني لأنام؛ وهذا كل شيء يا هيستر، لكنه حقيقي، وأمي العزيزة تعرف أنه حقيقي».

ظننتُ أن الطفلة تهذي بالحمى، فتظاهرتُ أنني أصدّقها، لكنها أعادت القصة مرارًا بنفس التفاصيل.

وأخيرًا، طرقت دوروثي الباب ومعها إفطار روزاموند، وأخبرتني أن السيدتين في غرفة الطعام، وأنهما تريدان التحدث إليّ.

فكرت: «سأُلام على ذلك»، لكنني تشجعتُ وقلت: «لقد تركتُها في عهدتهما، وهما المسؤولتان عن تركها تهرب بلا مراقبة».

فدخلتُ بجرأة، ورويتُ القصة كاملةً للآنسة فيرنيفال، صائحةً في أذنها.
لكن حين وصلتُ إلى ذكر الفتاة الأخرى في الثلج، التي أغرتها لتخرج، ثم السيدة الجميلة عند أشجار الهولي، رفعت الآنسة فيرنيفال ذراعيها العجوزتين اليابستين، وصرخت: «يا رب، اغفر! ارحم!»

أمسكت بها السيدة ستارك بخشونة، لكنها كانت خارج سيطرتها، وقالت لي بصوتٍ مزيجٍ من التحذير والسلطة: «هيستر! أبعديها عن تلك الطفلة! إنها ستجذبها إلى الموت! تلك الطفلة الشريرة! قولي لها إنها طفلة آثمة شقية!»

ثم دفعتني السيدة ستارك خارج الغرفة، بينما كانت الآنسة فيرنيفال تصرخ: «ارحم! أما آن الغفران؟ لقد مضت سنوات طويلة!»

شعرتُ بقلقٍ شديد بعدها. لم أجرؤ أن أترك روزاموند لحظة، ليلًا أو نهارًا، خوفًا من أن تهرب ثانيةً وراء وهمٍ أو خيال، وزاد خوفي لأنني بدأتُ أظن أن الآنسة فيرنيفال قد جُنّت، وربما كان ذلك مرضًا في العائلة، قد يهدد صغيرتي أيضًا.
وكان الصقيع لا ينقطع، وكلما كانت الليلة أشد عاصفة، كنا نسمع الأرغن العظيم يعزف بين هبوب الرياح.

لكن، مهما كان، كنتُ أرافق روزاموند حيثما ذهبت؛ فحبي لها، تلك اليتيمة الجميلة العاجزة، كان أقوى من خوفي من ذلك الصوت العظيم المرعب.

وكان عليّ أن أُبقيها سعيدةً مرحةً كما يليق بعمرها.

وهكذا، في أحد الأيام قبل عيد الميلاد بقليل، كنا نلعب معًا على طاولة البلياردو في القاعة الكبرى

(لم نكن نعرف اللعب الصحيح، لكنها كانت تحب أن تدحرج الكرات العاجية الناعمة بيديها الجميلتين، وأنا أحب أن أفعل ما تفعل).

ومع مرور الوقت، بدأ الظلام يزحف إلى الداخل، رغم أن الخارج كان لا يزال مضيئًا، وكنتُ أفكر أن أعيدها إلى الحضانة، حين صاحت فجأة: «انظري يا هيسترا! هناك فتاتي الصغيرة المسكينة في الثلج!»

التفتُّ إلى النوافذ الطويلة الضيقة، ورأيتُ بالفعل فتاةً صغيرة، أصغر من روزاموند، ترتدي ثيابًا لا تصلح للخروج في ليلة قارسة كهذه، تبكي وتضرب على زجاج النافذة كأنها تريد الدخول.

بدت كأنها تنتحب وتنوح، حتى لم تعد روزاموند تحتمل، فاندفعت نحو الباب لتفتحه؛ لكن فجأة، دوّى الأرغن العظيم بصوتٍ مدوٍّ رهيب، حتى ارتجفتُ رعبًا، وتذكرتُ أنه رغم أنني رأيت الفتاة تضرب وتبكي، لم أسمع أي صوت ليديها على الزجاج، ولا أي أنين في أذني.

لا أدري إن كنتُ قد تذكرتُ ذلك في اللحظة نفسها، فقد صعقني صوت الأرغن، لكنني أعرف أنني أمسكتُ روزاموند قبل أن تفتح الباب، وحملتُها وهي تصرخ وتقاوم إلى المطبخ الكبير المضيء، حيث كانت دوروثي وأغنيس مشغولتين بفطائر اللحم.

صاحت دوروثي: «ما الأمر بصغيرتي؟» وأنا أحمل روزاموند التي كانت تبكي كأن قلبها سينكسر.

قالت وهي تضربني: «إنها لا تدعني أفتح الباب لفتاتي الصغيرة لتدخل؛ ستموت إن بقيت في التلال طوال الليل! قاسية، شقية يا هيستر!»
لكنها لم تضربني بقوة، فقد رأيتُ على وجه دوروثي نظرة رعبٍ شاحبٍ جعلت دمي يتجمد.

قالت دوروثي: «أغلقي باب المطبخ الخلفي جيدًا، وأحكمي إغلاقه»
ولم تقل أكثر من ذلك.
أعطتني زبيبًا ولوزًا لأهدئ روزاموند، لكنها ظلت تبكي على الفتاة في الثلج، ولم تلمس شيئًا من الطعام. كنتُ ممتنة حين نامت أخيرًا وهي تبكي.

قلتُ إن من اليسير عليها أن تتكلم، وهي التي تعرف ما تعنيه هذه المشاهد والأصوات، وربما كان لها في حياة «طفلة الطيف» شأنٌ ما.
فأخذتُ ألحّ عليها وأسخر من ترددها حتى أفضت إليّ بكل ما تعرفه.
وحين فعلت، تمنيتُ لو أنها لم تخبرني؛ فقد لم يزدني علمها إلا خوفًا فوق خوفي.

قالت إنها سمعت الحكاية من جيران قدماء كانوا أحياءً حين تزوجت أول مرة، وكان الناس يقصدون القصر أحيانًا قبل أن يشيع عنه سوء السمعة في الريف.
وقد تكون الحكاية صحيحة، وقد لا تكون، لكنها روت ما سمعته.

كان اللورد العجوز والد الآنسة فيرنيفال — أو «غريس» كما كانت دوروثي تسميها، لأن «مود» كانت الأخت الكبرى — رجلًا أكل الكبرياء قلبه.
لم يُرَ ولم يُسمع بمثله في العظمة والغطرسة، وكانت ابنتاه على شاكلته.

لم يكن أحدٌ كفؤًا للزواج بهما، على كثرة الخُطّاب، فقد كانتا من أجمل حسنوات عصرهما، كما رأيتُ في صورتيهما المعلقتين بغرفة الاستقبال الرسمية.
لكن كما يقول المثل القديم: «الكبرياء يسبق السقوط»، فوقعت هاتان الحسناوان المتكبرتان في حب رجل واحد، لم يكن سوى موسيقي أجنبي أنزله أبوهما من لندن ليعزف معه في قصر المانور.

وكان اللورد العجوز، بعد كبريائه، مولعًا بالموسيقى؛ يعزف على كل آلة تقريبًا، لكن ذلك لم يرقّق قلبه، بل بقي شرسًا عبوسًا، حتى قيل إن قسوته كسرت قلب زوجته المسكينة.

كان مجنونًا بالموسيقى، يبذل فيها المال بلا حساب.
فجاء بهذا الأجنبي، الذي صنع موسيقى ساحرة حتى قيل إن الطيور كانت تسكت عن تغريدها لتسمعها.

فجاء بهذا الأجنبي، الذي صنع موسيقى ساحرة حتى قيل إن الطيور كانت تسكت عن تغريدها لتسمعها.
وشيئًا فشيئًا استحوذ على اللورد، حتى لم يرضَ إلا بعودته كل عام، وهو الذي أحضر الأرغن العظيم من هولندا وبناه في القاعة حيث لا يزال.
وعلّم اللورد العزف عليه.
لكن مرارًا، بينما كان اللورد فيرنيفال مستغرقًا في أرغنه وموسيقاه، كان الأجنبي الأسمر يتمشى في الغابة مع إحدى الشابتين: تارة مع مود، وتارة مع غريس.

فازت مود بالرجل وتزوجته سرًا، وقبل زيارته السنوية التالية كانت قد وُضعت في بيت مزرعة على المستنقعات، بينما ظنّ والدها والآنسة غريس أنها في سباقات دونكاستر.
لكنها، وإن صارت زوجة وأمًا، لم تلن؛ بل بقيت متكبرة جامحة، وربما ازدادت غيرةً من غريس، إذ كان زوجها الأجنبي يتودد إلى غريس ليخفي حقيقته، كما قال لزوجته.
ثم انتصرت غريس على مود، فازدادت مود ضراوةً تجاه زوجها وأختها.

أما الزوج، إذ كان يستطيع أن يطرح عن نفسه ما يزعجه ويهرب إلى البلاد البعيدة، فقد رحل في ذلك الصيف قبل موعده بشهر، وهدد هددًا شبه صريح بأنه لن يعود.
وتركت الطفلة في بيت المزرعة، وكانت أمها تُسرج فرسها وتركض بجنون فوق التلال لتراها مرة كل أسبوع على الأقل؛ فحيث أحبت، أحبت بكل قلبها، وحيث كرهت، كرهت بكل قلبها.

ظل اللورد العجوز يعزف على أرغنه، وظن الخدم أن موسيقاه العذبة لطّفت مزاجه المرعب، الذي كانت تُروى عنه — كما قالت دوروثي — حكايات مروعة.
ثم ضعف بدنه واضطر إلى المشي بعكاز. وكان ابنه، والد اللورد فيرنيفال الحالي، مع الجيش في أمريكا، والآخر في البحر؛ فصارت مود تدير شؤونها كما تشاء، وازدادت هي وغريس برودةً ومرارةً حتى لم يتحدثا إلا نادرًا، إلا بحضور اللورد.

عاد الموسيقي في الصيف التالي، لكنها كانت المرة الأخيرة؛ فقد جعلتا حياته جحيمًا بغيرتهما وانفعالاتهما، فتعب ورحل ولم يُسمع عنه بعد.
وتركت مود، التي كانت تريد أن تُعلن زواجها بعد موت أبيها، زوجةً مهجورة لا يعرف أحد أنها تزوجت، ومعها طفلة لا تجرؤ على الاعتراف بها مع أنها أحبتها حتى الجنون، تعيش مع أب تخافه وأخت تكرهها.

وحين مر الصيف التالي ولم يعد الأجنبي الأسمر، ازدادت مود وغريس كآبةً وحزنًا، وبدت عليهما نظرة نحول، مع أنهما بقيتا جميلتين.
ثم بدأت مود تتحسن قليلًا، إذ ازداد والدها ضعفًا وانصرافًا إلى الموسيقى، فصار لكل منهما غرف منفصلة: غرف في الغرب، ومود في الشرق — تلك الغرف ذاتها المسدودة الآن.

فظنت أنها قد تأتي بطفلتها لتكون معها، دون أن يعلم أحد إلا من لا يجرؤ على الكلام، ومن يجب أن يصدق أنها، كما قالت، طفلة لأحد القاطنين أُعجبت بها.

قالوا إن هذا كله كان معروفًا إلى حد ما، أما ما جاء بعد ذلك فلم يعلمه إلا الآنسة غريس والسيدة ستارك، التي كانت يومها خادمتها، بل صديقة لها أكثر مما كانت أختها.

لكن الخدم ظنوا، من كلمات متفرقة، أن مود انتصرت على غريس وأخبرتها أن الأجنبي الأسمر، طوال تودده الزائف إليها، كان زوجها هي.
فترك اللون وجنتي غريس وشفاهها في ذلك اليوم إلى الأبد، وسُمعت تقول مرارًا إنها ستنتقم عاجلًا أو آجلًا، وكانت السيدة ستارك تتجسس دائمًا حول الغرف الشرقية.

وفي ليلة مرعبة، بعد دخول العام الجديد بقليل، والثلج راكد عميق، والرقائق تتساقط بغزارة تعمي كل من يخرج، سُمع ضجيج عظيم عنيف، وصوت اللورد العجوز فوق كل شيء، يلعن ويشتم شتمًا مرعبًا، وصرخات طفلة صغيرة، وتحدٍّ متكبر من امرأة شرسة، وصوت ضربة، ثم سكون ميت، وأنّات وعويل يخفتان على جانب التل.

ثم استدعى اللورد خدمه، وأخبرهم بأقسام مرعبة وكلمات أشد رعبًا أن ابنته جلبت العار، وأنه طردها من الباب هي وطفلتها، وأنه إن قدموا لها عونًا أو طعامًا أو مأوى، دعا ألا يدخلوا الجنة.

وطوال ذلك وقفت غريس إلى جانبه، بيضاء ساكنة كالحجر.
وحين انتهى أطلقت تنهيدة عميقة، كأنها تقول إن عملها قد انتهى وغايتها قد تحققت.

لكن اللورد القديم لم يلمس أرغنه بعد ذلك أبدًا، ومات في غضون العام، ولا عجب! ففي صباح تلك الليلة الوحشية، وجد الرعاة، وهم نازلون من جانب التل، الآنسة مود جالسة مجنونة مبتسمة تحت أشجار الهولي، تحضن طفلة ميتة، وعلى كتفها الأيمن علامة مرعبة.

لكن ذلك لم يكن ما قتلها؛ قالوا إن الصقيع والبرد هما اللذان قتلاها، فكل مخلوق بري كان في جحره، وكل بهيمة في حظيرتها، بينما طُردت الطفلة وأمها لتتيهَا على التلال.
والآن تعرفين كل شيء! وأتساءل هل صرت أقل خوفًا؟

كنت أكثر خوفًا من قبل، لكنني قلت إنني لست خائفة.
تمنيت لو أنني والآنسة روزاموند خرجنا من ذلك البيت المرعب إلى الأبد، لكنني لم أستطع تركها، ولم أجرؤ على أخذها بعيدًا.
آه، كيف كنت أراقبها وأحرسها! كنا نغلق الأبواب ونُحكم إغلاق النوافذ قبل حلول الظلام بساعة أو أكثر، على أن نتركها مفتوحة خمس دقائق متأخرة.

لكن سيدتي الصغيرة كانت لا تزال تسمع الطفلة الغريبة تبكي وتنوح؛ ولم يستطع كل ما فعلناه أو قلناه أن يمنعها من الرغبة في الذهاب إليها وفتح الباب لها من الريح القاسية والثلج.
وطوال ذلك كنت أبتعد عن الآنسة فيرنيفال والسيدة ستارك قدر ما أستطيع، لأنني كنت أخافهن. كنت أعلم أنه لا خير فيهما، بوجهيهما الرماديين القاسيين وعينيهما الحالمتين اللتين تنظران إلى سنوات ماضية مرعبة.
لكن، حتى في خوفي، شعرت بنوع من الشفقة على الآنسة فيرنيفال على الأقل.

أولئك الذين هبطوا إلى الهاوية لا يمكن أن تكون نظراتهم أكثر يأسًا من النظر الذي كان لا يفارق وجهها.
وفي النهاية شعرت بالأسف عليها، هي التي لم تنطق بكلمة إلا منتزعة، حتى دعوت لها، وعلّمت الآنسة روزاموند أن تدعو لمن ارتكب خطيئة مميتة.

لكن كثيرًا ما كانت، حين تصل إلى تلك الكلمات، تصغي وتقفز من ركبتيها وتقول: «أسمع طفلتي الصغيرة تشكو وتبكي بحزن شديد — آه! دعوها تدخل، وإلا فستموت!»
وفي ليلة، بعد أن جاء يوم العام الجديد أخيرًا، وقد بدأ الشتاء الطويل يتحول كما كنت أرجو، سمعت جرس غرفة الاستقبال الغربية يرن ثلاث مرات، وكان ذلك إشارة لي.

لم أرد أن أترك الآنسة روزاموند وحدها، رغم أنها كانت نائمة، لأن اللورد القديم كان يعزف أعنف من أي وقت، وخشيت أن تستيقظ حبيبتي فتسمع طفلة الطيف أو تراها.
وكنت أعلم أنها لا تستطيع، فقد أحكمت إغلاق النوافذ جيدًا.

فأخذتها من سريرها ولففتها بأكثر الثياب الخارجية متناولًا، وحملتها إلى غرفة الاستقبال حيث كانت السيدتان العجوزتان تجلسان إلى تطريزهما كالعادة.
رفعتا رأسيهما حين دخلت، وقالت السيدة ستارك مندهشة: «لماذا أحضرت الآنسة روزاموند إلى هنا من سريرها الدافئ؟» وبدأت أهمس: «لأنني كنت أخشى أن تُغوى بالخروج وأنا غائبة، بفعل الطفلة البرية في الثلج»

فقطعتني (بنظرة إلى الآنسة فيرنيفال) وقالت إن الآنسة فيرنيفال تريدني أن أفك بعض العمل الذي أخطأت فيه، ولم تستطع أي منهما رؤيته لتفككه. فوضعت عزيزتي الجميلة على الأريكة، وجلست على مقعد صغير بجانبهما، وقسّيت قلبي عليهما وأنا أسمع الريح تعلو وتصرخ.

نامت الآنسة روزاموند نومًا عميقًا، رغم أن الريح كانت تعصف، ولم تنطق الآنسة فيرنيفال كلمة، ولم تلتفت حين هزت العواصف النوافذ.
وفجأة نهضت إلى قامتها الكاملة، ورفعت يدًا واحدة كأنها تأمرنا أن نصغي.

«أسمع أصواتًا!» قالت. «أسمع صرخات مرعبة! أسمع صوت أبي!»

وفي تلك اللحظة، استيقظت صغيرتي على حين غرة، وقالت: «فتاتي الصغيرة تبكي! آه، كم تبكي!» وحاولت أن تنهض لتذهب إليها، لكن قدميها تشابكتا بالغطاء، فأمسكتُ بها سريعًا، إذ اقشعرّ جسدي من تلك الأصوات التي بدأت تُسمع، بينما لم نكن نحن بعدُ نسمع شيئًا. وبعد دقيقة أو دقيقتين، تواترت الأصوات واشتدت، حتى ملأت آذاننا؛ فسمعنا نحن أيضًا صراخًا وأصواتًا، ولم نعد نسمع عصف الشتاء في الخارج.
نظرتْ إليّ السيدة ستارك، ونظرتُ إليها، لكننا لم نجرؤ على الكلام.

وفجأة، تقدّمت الآنسة فيرنيفال نحو الباب، إلى الغرفة الأمامية، ثم عبرت الردهة الغربية، وفتحت باب القاعة الكبرى.
تبعتها السيدة ستارك، ولم أجرؤ أن أبقى وحدي، رغم أن قلبي كاد يتوقف من الخوف.
ضممتُ صغيرتي بقوة إلى صدري وخرجت معهما.

وفي القاعة كان الصراخ أعلى من أي وقت مضى، قادمًا من الجناح الشرقي، أقربَ فأقرب، حتى صار خلف الأبواب المغلقة مباشرة.
ولاحظتُ أن الثريا البرونزية العظيمة مضاءة كلها، رغم أن القاعة مظلمة، وأن نارًا كانت مشتعلة في الموقد الضخم، لكنها بلا حرارة؛ فارتجفتُ رعبًا وضممتُ صغيرتي أكثر.

عند ذلك اهتزّ باب الجناح الشرقي، وصغيرتي تصرخ: «هيستر! يجب أن أذهب! فتاتي الصغيرة هناك، أسمعها، إنها قادمة! هيستر، يجب أن أذهب!»

أمسكتُها بكل قوتي، بعزم لا يتزعزع، حتى لو متّ لظلّت يداي ممسكتين بها. كانت الآنسة فيرنيفال واقفة تستمع، غير مبالية بصغيرتي التي تحاول الإفلات مني، وأنا على ركبتيّ، أحتضنها بذراعيّ حول عنقها، وهي تصارع وتبكي لتتحرر.

وفجأة، انفتح الباب الشرقي بصوت مدوٍّ كالرعد، كأنه اقتُلع بعنف، وظهر في ذلك الضوء الغامض رجل طويل عجوز، ذو شعر رمادي وعينين لامعتين، يدفع أمامه بملامح قاسية امرأةً جميلة صارمة، وبجانبها طفلة صغيرة متشبثة بثوبها.

صاحت روزاموند: «هيستر! إنها السيدة! السيدة تحت أشجار الهولي، وفتاتي الصغيرة معها! هيستر! دعيني أذهب إليها، إنهم يجذبونني إليهم، أشعر بهم، يجب أن أذهب!»

كانت تكاد تُمزّق من بين ذراعيّ بقوة تفوق قوتي، وأنا أحتضنها بقوة حتى خشيت أن أؤذيها، لكنني فضّلت ذلك على أن تذهب نحو تلك الأشباح الرهيبة.

مرّوا نحو باب القاعة الكبير حيث كانت الرياح تعوي، لكن قبل أن يصلوا، التفتت السيدة، ورأيتها تتحدى الرجل العجوز بكبرياء، ثم ارتجفت، ورفعت ذراعيها بيأس لتنقذ طفلتها من ضربة عكازه المرفوع.

وكانت روزاموند تصرخ وتبكي، تقول: «إنهم يريدون أن يأخذوني معهم إلى التلال، إنهم يجذبونني إليهم.

آه، فتاتي الصغيرة! أود أن أذهب، لكن هيستر القاسية تمنعني!» وحين رأت العكاز مرفوعًا، أُغمي عليها، فشكرتُ الله على ذلك.

وفي تلك اللحظة، كان الرجل العجوز، وشعره يتطاير كأنه لهب، على وشك أن يضرب الطفلة، فصرخت الآنسة فيرنيفال: «يا أبي! يا أبي! ارحم الطفلة البريئة!» لكننا رأينا جميعًا شبحًا آخر يتشكل من الضوء الأزرق الضبابي في القاعة: سيدة أخرى، بملامح كراهية لا ترحم، وابتسامة انتصار ساخرة.

كانت جميلة، ترتدي قبعة بيضاء ناعمة فوق حاجبين متكبرين، وشفاهًا حمراء ملتفة، وثوبًا من الساتان الأزرق.
لقد رأيت تلك الصورة من قبل، كانت شبيهة بالآنسة فيرنيفال في شبابها.

تحركت الأشباح غير مبالية برجاء الآنسة فيرنيفال، وسقط العكاز على كتف الطفلة اليمنى، بينما كانت الأخت الصغرى تنظر ببرود قاتل.

وفي تلك اللحظة، انطفأت الأضواء الخافتة والنار التي بلا حرارة، وسقطت الآنسة فيرنيفال عند أقدامنا، مصابة بالشلل، ضُربت بالموت.

نعم، حُملت إلى سريرها تلك الليلة، ولم تنهض بعدها أبدًا.

ظلت بوجهها إلى الحائط، تتمتم بصوت خافت، لكنها كانت تكرر دائمًا: «آه! آه! ما يُفعل في الشباب لا يمكن أن يُمحى في الشيخوخة! ما يُفعل في الشباب لا يمكن أن يُمحى في الشيخوخة!»

الخاتمة

كانت هذه نهاية قصصنا الثلاث.

وهنا يحسن بي أن أعترف لك: هذه أول مرة أترجم فيها نصًا أدبيًا بهذا الشكل، وهي تجربة حملت قدرًا من القلق والتردد.
فالترجمة بالنسبة لي ليست نقل كلمات من لغة إلى لغة، بل محاولة لنقل الرعشة نفسها وإعادة إنتاجها بالعربية.
قد أنجح وقد أخفق في موضع أو آخر، لكنني حاولت أن أكون أمينًا لروح النص قبل حروفه، وأن أمنح كل قصة ما تستحقه من عناية وصبر.

لماذا ترجمتها إذن؟ لأنني قرأتها وشعرت أن هناك من يجب أن يشاركني إياها. قرأتها في جلسة واحدة، ثم أعدت قراءتها لأتأكد أن ما شعرت به لم يكن وهمًا.
وستجد بين هذه الصفحات ثلاث قصص؛ بعضها سيربكك، وبعضها سيضحكك، وواحدة ربما ستترك في صدرك شيئًا صغيرًا لا يخرج بسهولة.
لا تقرأها كلها في جلسة واحدة إن استطعت؛ اترك لكل قصة وقتها، واسمح لنفسك ألا تفهم كل شيء من أول مرة.
فالقصص الجيدة لا تُفهم، بل تُعاش.

وفي النهاية، إن أعجبتك هذه القصص، فالشكر الحقيقي يعود للكُتّاب. أما إن ضايقك شيء في الترجمة، فذاك أنا وحدي، وأنا أول من يعرف أن هذه التجربة الأولى قد تحمل بعض النقص.
وإن لم تعجبك القصص من الأساس... فربما نحتاج أن نتحدث في المرة القادمة ولكن الآن فقد نفذت قصصي لليوم.

شكرًا لأنك وصلت إلى هنا، ولأنك منحت هذه القصص وقتك.